

## بين الفلسفة والطب

د. أحمد صبحي<sup>(\*)</sup>

منهج التحليل كي يصل إلى معرفة القوانين التي تحكم الظواهر المتعلقة بالصحة، أما ما عدا ذلك من الأساليب فهي معرفة ظنية ينبغي أن يتجاوزها الطب الحديث<sup>(1)</sup>.

وفي عبارات أخرى يشير إلى أنه لا بد أن يتحرر من عبه مذاهب فلسفية لن تعبر عن الحقيقة أبداً، وذلك أن العلماء يتذكرون دون معاونة الفلسفة، بل إن أكثر العلماء ابداعاً أقلمهم اطلاقاً على فلسفة يكون بينما الذين قرأوه أخفقوا كما أخفق بيكون نفسه أن يكون عالماً، لأن العلم لا يثر إلا في العمل<sup>(2)</sup>.

لست الآن بصدق نقد رأي كلود برنار، لأن ذلك سيرد ضمناً فيما بعد حين الحديث عن الأسس الفلسفية للطب الحديث، ولكنني أود أن أوضح مقولي بتصورين:

الأول: إن القول بالأسس الفلسفية للنسق الطبي أو بالأحرى بالتأصيل الفلسفى للممارسات الطبية لا

تهيد:

تهدف هذه المقالة إلى بيان الصلة الوثيقة بين الفلسفة والطب بالرغم من تباينها موضوعاً ومنهجاً، وتتضمن هذه الصلة اذا عرفنا ان الاختلاف بين النسق الطبي القديم والنسق الطبي الحديث اما يرجع الى اختلاف الأسس الفلسفية التي يقوم عليها كل نسق منها.

قد لا يجد القول بأسس فلسفية للطب القديم معارضة حين كانت الفلسفة أم العلوم، وحين كان بين الفلاسفة أطباء مثل انبادوقليس، أو كان بعض الأطباء فلاسفة مثل ابن زكريا الرازى ولكنه قد يلقى أشد معارضه بصدق الطب التجربى الحديث بعد أن غدا علمياً مثله في ذلك مثل سائر العلوم التجريبية التي استقلت عن الفلسفة.

يقول كلود برنار: ينبغي للطب الحديث أن يكون علمياً بحثاً لا يخضع الا للتجربة، ولا يتنهج الا

(\*) أستاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية.

التصور الثاني: ولكن الأمر بصدق الطب يتجاوز دور الفلسفة بالنسبة لسائر العلوم، فقد كان وما فتىء مستندًا إلى أساس فلسفية تحدد له معالم الطريق حتى لا يضل في متأهلهات لو كانت الممارسات الطبية مستندة إلى مبدأ المحاولة والخطأ، ولن يهديه سواء السبيل مجرد استناده إلى المنهج التجريبي، أريد أن أقول: لقد كانت هناك دومًا مبادئ وأفكار فلسفية تحكم المسيرة الطبية خلال عصور التاريخ، وأنه من الخطأ الظن أن الفلسفة كانت مجرد مرحلة تاريخية في انتقال الطب من طور السحر إلى طور العلم.

بعد هذا التمهيد - الذي أعتذر إن كنت قد أطلبت فيه - الخ إلى الموضوع بتحديد الخطوط أو الملامح الرئيسية الموضحة لصلة الطب بالفلسفة.

الملمح الأول: إن هناك نسقين متباينين في العلاج أحدهما كان يمارسه الطب القديم الذي يسميه الدكتور محمد كامل حسين «طب الخبرة المنظمة» والذي كان سائداً في بعض الحضارات القديمة كالصينية والمصرية واليونانية والذي ظل متداولاً في الحضارة الإسلامية حتى مطلع العصر الحديث، وثانيهما: الطب الحديث المسمى بالطب العلمي التجريبي، وأن لكل نسقاً منها مبادئه الفلسفية.

الملمح الثاني: مع أن لكل حضارة من الحضارات القديمة خصوصيتها فقد كانت هناك خصائص مشتركة بينها راجعة إلى تشابه النظرة إلى الكون والإنسان، وقد انعكست هذه الخصائص المشتركة على الطب في مختلف هذه الحضارات فانتجت تشابهاً - ولا أقول

يعقصد به اطلاقاً الدعوة إلى إعادة الطب أو أي علم آخر إلى أحضان الفلسفة، ذلك أي أؤمن أن استقلال العلوم عن الفلسفة لا يعني اطلاقاً طلاقاً بائساً بينها، وإنما هو تماماً كاستقلال الفتاة عن أمها بزواجهها فإنه لا يعني استغناءها عنها، إذ تلجأ طالبة المشورة من الأم المحنكة - ولا أقول العجوز - في مستجدات من المشكلات والمواضيعات لم تكن قائمة قبل زواجها.

يدل ذلك على هذا اعتراف الأطباء في عصرنا - ربما على نحو أكثر صراحة من علماء سائر العلوم - بأهمية دور الفلسفة فكان أن التمسوا من الأم المحنكة الرأي والمشورة بصدق موضوعين:

الأول: توضيح طبيعة المشكلات الأخلاقية المترتبة على التقدم التكنولوجي في مجال علم البيولوجيا وبخاصة بعد تطبيقات الهندسة الوراثية<sup>(\*)</sup>.

الثاني: حين التبس الأمر على الأطباء بصدق بعض المصطلحات المتداولة بينهم حتى أبسطها مثل مفهوم الحياة: وهل تتفاوت في مراحل حياة الجنين؟ ومفهوم كل من الصحة والمرض ثم التمييز بين الموت والاحتضار أو بالأحرى بين التعبيرين: (لقد مات - انه يموت) He is dead - He is dying، ذلك أنهما شعروا أن المفاهيم البيولوجية أو الأحكام الأكlinيكية مثل هذه التعبيرات قاصرة ولم تعد كافية، فكان أن التمسوا الرأي والمشورة من الفلسفة بما أورتت من قدرة على التحليل والنقد<sup>(\*\*)</sup>.

هكذا تبين ان الأطباء قد غدوا في مقدمة العلماء المعترفين بأهمية دور الفلسفة وتعذر الاستغناء عنها.

(\*) وقد كان هذا موضوع رسالة الماجستير للسيدة ناهدة البقصمي المدرسة المساعدة بقسم الفلسفة.

Charles M. Culver & Bernard Gert Philosophy in medicine

(conceptual & ethical issues in medicine & Psychiatry) Philosophers have as one of their primary tasks the analysis of concepts and in recent years, Philosophers have come to realize that medicine, especially psychiatry employs many interesting concepts that are in need of analysis.

وعكن تلخيص القضايا الأساسية للمذهب الحيوي بنزعته العضوية فيما يأتي:

أولاً: إن الفارق بين الكائن العضوي وغير العضوي أثماهو فارق في الطبيعة لا في الدرجة، ومن ثم لا يمكن رد الحياة إلى عناصر من الجماد، بخلاف العلم الحديث حيث ترد الظواهر البيولوجية إلى عوامل فيزيقية وكيميائية.

ثانياً: النظرية الواحدية الكلية أي النظر إلى الإنسان بوصفه كياناً واحداً أو بنية متكاملة.

في كتابه «الفلسفة والطب» الذي قدم الزميل المرحوم الدكتور عزمي إسلام عرضاً له في مجلة «علم الفكر»<sup>(5)</sup> يذهب ليدرمان إلى أن هناك فلسفتين للطب، أما الأولى فهي فلسفة المذهب المادي الآلي، وأما الثانية فهي فلسفة المذهب الكلي Wholism أو الراجدي Monism التي تنظر إلى الإنسان بوصفه كياناً واحداً متكاملاً، إذا مرض عضو من أعضائه فإن معنى ذلك مرض الكل أو بالأحرى تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

إن الكل هنا ليس مجرد مجموع الأجزاء ولكنه أكثر من ذلك، ذلك أن الوحدة العضوية بين الأجزاء تشكل من الخصائص ما ليس لكل جزء أو لكل عضو فيه، فإذا كان كل عضو من أعضاء الطير لا يقوى على الطيران، فان الطائر - كل الطائر - يطير، ذلك أن الجزء يفتقر إلى ما لا يفتقر إليه الكل، على خلاف المادة الخامدة التي يحمل فيها الجزيء جميع صفات الجسم.

ثالثاً: إن خصائص الكل هي التي تحدد وظيفة الجزء، إذ لا يمكن أن يعمل العضو منفرداً، فلا تبصر

تماثلاً - بين الطب الصيفي وبين كل من الطب المصري والطب اليوناني.

الملمح الثالث: إن كثيراً من القواعد الطبية تذكر بنظريات فلسفية إلى حد يدعو إلى التساؤل: هل كانت الممارسات العلاجية تطبقاً لنظريات فلسفية أم جاءت النظريات الفلسفية محصلة لقواعد طبية؟ خد مثلاً عبارة انكساغوراس (ت 428 ق.م) : الشيء لا يؤثر في الشيء وإنما المختلف وحده هو الذي يحدث التأثير فيما مختلف عنه، فلا يدرك الإنسان الجسم الحار إذا كان في نفس حرارة اليد وإنما لو كان أقل حرارة شعر ببرودته أو أعلى حرارة شعر بسخونته<sup>(3)</sup>، وخذ عبارة ابقراط (377 ق.م) : إذا عرف الطبيب العلة عالجها بضدتها، فإذا كان المرض من حر برد، وإن كان من برد سخنه، وإن كان من بيس رطبه، وإن كان من رطوبة يسسه، وإن كان من امتلاء أفرعه، وإن كان من إفراط ملأه بالأغذية المموافقة، وإن كان من تعب أراح البدن، وإن كان من خوف دخل عليه الأمان، أو من حزن دخل عليه السرور، اذ الضد للضد دواء.

وليس هذا التشابه مقصوراً على الطب القديم وإنما نجد مثله في الطب الحديث<sup>(\*)</sup> مما يؤكّد الصلة الوثيقة بين المجالين.

- 1 -

ما عسى أن تكون الأسس الفلسفية التي يقوم عليها نسق طب الخبرة المنظمة في مقارنتها بنسق الطب التجاري؟

أهم هذه الأسس هو المذهب الحيوي بنزعته العضوية في مقابل المذهب المادي بنزعته الآلية.

(\*) ذهب مثل المذهب المادي مثل لاموري Lametherie إلى أن الإنسان آلة حية وقد أعلن مؤخراً أنه تم اكتشاف جهاز يتحكم في القبول بواسطة الرمoot كنترول remote control ليستخدمة مرضى السكر وسلس البول فضلاً عن التبول اللاإرادي لدى بعض الأطفال.

في بينما «كل بني آدم خطاء» وفقاً للحديث النبوى، فإنه وفقاً للحديث أيضاً «لا تجتمع أمتى على ضلاله»، وهكذا بينما اتصف كل فرد بامكانية الخطأ وصف الاجاع بالعصمة بما يعني أن الكل ليس مجرد مجموع الأفراد.

ولقد حددت هذه النظرة الكلية مفهوم المرض وأسلوب العلاج في الطب القديم، فليس هو مرض عضو كما سبق القول وإنما هو مرض الفرد بأكمله، ومن ثم فإن الشفاء إنما يعني أن يسترد الكائن العضوي أو المريض بأكمله عافيته ولن يتسمى ذلك إلا ان استعادت جميع الأعضاء أداء وظائفها في وحدة عضوية متکاملة.

كذلك حددت هذه النظرة الكلية أسلوب العلاج، ومن ثم فان العلاج بالغذاء أولى من العلاج بالدواء، والعلاج الطبيعي مقدم على العلاج الجراحي للعضو المصاب.

يقول J.R.Worsley وهو طبيب بريطاني درس الطب الصيني وتحمس له في كتابه Everyone's guide to acupuncture المرشد إلى الإبر الصينية: بينما يعمل الطب الغربي على تعريض المريض عما فقده أو افتقر إليه بالمرض، فإن هذا من منظور صيني لا يفي بالغرض لأنها لا يعني أن أعضاء الجسم قد عادت إلى أداء وظائفها بصورة سليمة، أما العلاج بالإبر الصينية فإنه يعمل على تكين الجسم ككل من انتاج العناصر التي يفتقر إليها، ذلك أن علاج الكل سابق على علاج الجزء<sup>(7)</sup>.

أريد أن أصل من ذلك إلى أنه اذا كان التخصص مقتداً في الطب القديم - باستثناء «الكحالة» أو طب العيون في الحضارة الإسلامية - فليس ذلك عن قصور

العين مثلاً إن هي عزلت عن سائر أعضاء الجسم. رابعاً: إنه لا يمكن رد ما هو أعلى إلى ما هو أدنى، فلا ترد خصائص الحياة إلى صفات الجماد، ولا تنسى الطواهر البيولوجية بالعوامل الفيزيقية والكميائية وحدها.

خامساً: إن المصطلحات المتدالوة في المذهب الحيوي والتي تحدد مقولاته هي : الكلية Wholism - الواحدية Monism العضوية Organism ، التكامل integrity في مقابل مصطلحات المذهب المادي مثل الآلية Mechanism - الكثرة Pluralism - العناصرية<sup>(6)</sup> ekmentalism.

و قبل الانتقال إلى ذكر أمثلة أو تطبيقات من النسق الطبي القديم في ضوء المذهب الحيوي بنزعته العضوية الكلية لا بد من ذكر بعض ملاحظات:

1 - إنه يشار عادة إلى أرسطو على أنه واضح أساس المذهب الحيوي - كما لاحظ Morton Beckner بخسر كاتب مقال المذهب الحيوي Vitalism في الموسوعة الفلسفية - وذلك بعد انتقاداته للمذهب المادي بنزععة الآلية لدى الماديين من أمثال ديمقريطس.

2 - إن التزعة الكلية ليست مقصورة على المذهب الحيوي ولكنها تمتد إلى آفاق أرحب وأوسع من الفكر والعلم، إنها سمة رئيسية في فلسفة هيجل مثلاً حيث اراده الدولة وحربيتها تعلو وتسمو على ارادة جموع أفراد الشعب وحربياتهم<sup>(\*)</sup>، ثم إنها أهم خصائص نظرية الجشطلت أو سيكولوجية الشكل باعتبار أنها ندرك موجودات حية معبرة قبل أن ندرك جزيئاتها، وأن الحيوية والتعبير إنما يختفيان إن بلجأنا إلى التجزئة والتحليل.

بل إن هذه النظرة الكلية تمتد إلى نطاق الدين،

(\*) ومن قوانين الجدل الهيجلي التي تبين أن للكل من الخصائص ما يغاير خصائص كل جزء فيه قانون الطفرة ذلك أن التدرج الكمي حين يصل إلى حد معين يستحيل فجأة إلى تغير كيفي (د. امام عبد الفتاح: المنهج الجدلية عند هيجل ص 325).

وأغا عن فلسفة حددت نظرة الطب إلى الإنسان ومن ثم دوره في العلاج<sup>(8)</sup>.

وفي كتابه عن فترة التحول من النسق الطبي القديم إلى النسق الطبي الحديث في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في أوروبا يشير ثورنديك إلى أن الناس كانوا يعتبرون أن أكثر الأمور شذوذًا أن يتخصص طبيب في أمراض الأنف والأذن والحنجرة فقط، لأن الطب آنذاك كان يرفض اعتبار الكائن العضوى الحى مجرد مجموع أجزاء.

وتتفق عن النظرية الكلية عدة مبادئ سواء في الفلسفة أو في الطب.

المبدأ الأول: التوازن: لتحقيق الاتساق بين الأعضاء في أداء وظائفها الجماعية.

المبدأ الثاني: الغائية: ليحقق كل عضو وظيفته فضلاً عن التكامل بين الأعضاء.

المبدأ الثالث: لا بد أن يكون الأسلوب المعرفي أو الشعري متسبقاً مع النظرية الكلية.

المبدأ الأول: توثيق الصلة بين الفلسفة والطب في مبدأ التوازن، فمن منظور فلسفى: إنه المحور الذى في صوئه يمكن فهم معظم جوانب الفكر اليونانى، انه التنساب بين العناصر الأربع: النار والهواء والماء والتراب في فلسفة انبادوقليس، ثم هو التوازن بين قوى النفس الثلاث كلى تلزم عنه فضيلة العدالة، ثم هو التوازن بين الطبقات الثلاث: الحكم والجندي والشعب في جمهورية أفلاطون، ثم هو الوسط العدل بين افراط وتفريط كي تتحقق الفضيلة لدى ارسطو، وتتأمل هذا التوازن الدقيق، وبعد خلاف شديد بين ربات الانتقام وبين الصافحات في مسرحية أوريست الذي قتل أمه انتقاماً لشرف أبيه تطالب هيئة

(\*) الطاقة الحيوية Ch'ienergy تطلق - Kee.

المحلفين - تأمل هذه العبارة الدقيقة - تطالب بالميزان الذي إن اختل اختلت معه الحياة والاحياء، وتعادل أصوات الادانة مع البراءة - ستة وستة - لترجح البراءة اثنين بحكمتها جانب البراءة تحقيقاً للعدالة<sup>(9)</sup>.

واعكس هذا المبدأ المعبّر عن روح الحضارة الاغريقية على الطب، فالحياة والصحة لدى الفيشاغوريين تناسب وتناسق، والمرض اختلال التناسب اما افراطاً أو تفريطاً، وعمل الطبيب اعادة التناسب أو التوازن بين حرارة الجسم وبرودة الماء الخارجى ، والصحة لدى انبادوقليس - الفيلسوف المتطلب - توازن بين العناصر الأربع بفعل عامل المحبة، كما أن المرض اختلال بفعل عامل الكراهة بين الحرارة والبرودة والرطوبة والبيروسة، وعمل الطبيب لدى ابقراط هو تحكيم الطبيعة لاستعادة التوازن لا بالعقاقير فحسب بل براحة الجسم وهدوء النفس<sup>(10)</sup>، ثم التوازن بين الأمزجة الأربع لدى جالينوس.

والأساس النظري للعلاج بالابر الصينية هو اصلاح الخلل في الطاقة الحيوية Ch'ienergy<sup>(11)</sup> التي تسري في الجسم، ذلك ان تنظيم انساب هذه الطاقة يعيد للجسم حيويته وللمريض عافيته. وتنند هذه الفكرة بدورها إلى مبدأ فلسفى يسود الفكر الصيني بأكمله، وأعني به الايقاع المنتظم بين قوتين متعارضتين: قوة موجبة هي «اليانج» yang وقوة سالبة هي «الين» Yin في ضوئهما نفس جميع ظواهر الكون وحياة الإنسان ، ولم يجد مؤرخاً مثل «تويني» أدق من هذين التعبيرين لتفسير مسار التاريخ وما يعتريه من صراع وايقاع في نظريته في التحدى والاستجابة.

تسري الطاقة الحيوية في إيقاع منتظم من «اليانج» و«الين» داخل جسم الإنسان عبر مسارات أو قنوات Meridians اسمها «تشنج لو»، أن رجحت القوة

والإنسان، وأن كمال أي موجود في كمال تحقيقه للغاية من وجوده.

ومن منظور طبي : تمام الصحة في تمام تأدية الأعضاء لوظائفها: على أتم وجه، المبدأ إذن واحد سواء في الفلسفة أو في الطب: إنه المبدأ الغرضي أو الغائي.

ولا تقتصر الغائية عند مجرد القول بأداء كل عضو لوظيفته أو تحقيقه لغايته، فذلك أمر معروف، فالقول بأن الغرض من القلب دفع الدم إلى الشريانين أو بان غرض الرئتين تزويد الجسم بالأوكسجين والخلص من ثاني أكسيد الكربون، وإنما يتم ذلك بموجب طاقة تسري في الجسم يُكمله تسمى في الفكر اليوناني بـ«الطبيعة» وفي الفكر الصيني بالطاقة الحيوية Ch'ienergy<sup>(11)</sup>.

يعرف أرسطو الطبيعة بأنها مبدأ للحركة أو السكون في الموجودات الطبيعية تميزاً لها عن الجمادات والأجسام الصناعية المصنفة بالقصور الذاتي.

واطلاق لفظ «الطبيعة» على شيء داخلي في الكائن العضوي إنما يرجع إلى أننا في فكر لا يقيم تميزاً جوهرياً بين الإنسان والعالم الخارجي، إنما كوجهين لعملة واحدة هي «الكون» Cosm أن نظرت إليه من وجہ فهو Microcosm أو العالم الصغير أو الإنسان، وأن تأملت وجهه الآخر فهو الـ Macrocosm أو العالم الكبير، يقول أبو حيان التوحيدي : إذا عرف الإنسان عرف الكون الصغير، وإذا عرف العالم عرف الإنسان الكبير<sup>(14)</sup>.

وقد انعكس هذا التصور للكون على الطب فغدت وظيفته محاكاة الطبيعة وأضحى فعل الطبيب محاذاة عملها.

ذلك أن الطبيعة ليست سلبة، وإنما تكاد تكون واعية بدورها في مصارعة المرض مستعينة في ذلك بالدواء الملائم للعضو العليل، ذلك أنه إذا حصل

الموجة أو «الياينج» أدى ذلك إلى ارتفاع درجة الحرارة وإلى الآلام الحادة، أما أن رجحت القوة السالبة أو «الين» خارت قوى الإنسان، وإنما يعمل الوخز بالإبر على إعادة التوازن، إن زيادة إفرازات الأحماض في المعدة في حالة القرحة المعدية إنما تعني زيادة في القوة الموجة أو «الياينج»، ومن ثم فإن وضع الإبر على نقاط معينة في مسار الطاقة الحيوية المتعلقة بالمعدة ينخفض هذه الطاقة المسببة لزيادة الإفرازات<sup>(11)</sup>.

أما في الطب الحديث فإن الطبيب لا يهتم إلا بالجزء المصاب ثم يقوم بعزل عدد من العوامل التي يتتصور أنها ذات دلالة أو علاقة كزيادة العصارة المعدية أو النشاط الزائد للعصب الحائر دون اعتبار للمريض ككل الذي أصبح مصاباً بعد أن كان سليماً<sup>(12)</sup>.

وفي ضوء المذهب الحيوي بنزعته العضوية لا يقتصر عمل الكل على مجرد تحقيق التوازن، وإنما يسعى الجسم بأكمله إلى الت sham الجروح أو إلى التعويض عن الوظائف التي توقفت بعض الأعضاء عن أدائها سواء بسبب فشلها أو بتدهورها كما لو كانت في ذلك عن قصد ووعي، وذلك ينقلنا إلى المبدأ الثاني أعني :

الغاية : ذلك أن مبدأ الغائية يقترن اقتراناً وثيقاً بالذهب الحيوي وبالترحمة الكلية، فمن منظور فلسفية تشكل فكرة الغائية<sup>(13)</sup> المحور الرئيسي في فلسفة أرسطو الذي سبقت إشارة كاتب مقال «المذهب الحيوي» Vitalism في الموسوعة الفلسفية إنه مؤسس هذا الذهب.

إن المقدمة الكبرى عند أرسطو: أن كونا تحكمه الغائية هو أكثر معقولية من كون تحكمه الصدفة العميماء، وأن الغائية متحققة في الموجودات الطبيعية: في الأجرام السماوية ثم في حياة النبات والحيوان

**الأولى:** حقيقة أن مبدأ الغائبة غير خاضع للتجريب ولكن ذلك على حد تعبير كانت - لا يعني إنكاره<sup>(17)</sup> فلا أحد ينكر أن أشواك القنفذ تهدف إلى حمايته، وإذا كان لا يمكن مشاهدة الطبيعة الجوانية أو الطاقة الحيوية في الكائن العضوي فإن عدم الوجود لا يعني عدم الوجود.

**الثانية:** إنه لما أمكن أن تتعدد الوسائل من أجل تحقيق غاية - كما تعدد السبل إلى روما - فقد تعاملت وتزامنت أنماط مختلفة من العلاج في الطب القديم كالتأثر والأحتجاج بل حتى السحر والزار إلى جانب العلاج بالأعشاب، بينما يرفض الطب التجريبي أن يكون معه في العلاج شريك سواء بدعوى استحالته تعامل مع الخرافية أو بدعوى عدم خصوص مثل هذه الأنماط للتجريب.

ومع التسليم بحقيقة معظم هذه الأنماط من العلاج، فإنها كانت تؤدي دوراً فعالاً - بفعل الاتجاه الذاتي - في استئثاره الطاقات الكامنة في المريض، إنك تضع المريض بواسطة التأثر - على حد تعبير Sigerist سيجريست في مقاله عن الطب المصري القديم - في حالة نفسية تستثير القوى الداخلية للشفاء<sup>(18)</sup>.

وتوضح أهمية العامل النفسي في العلاج في أنه ما أن انتقل الطب المصري إلى اليونان حتى التمس اليونانيون لأنفسهم إلها للشفاء هو اسكليبيوس Asklepios ليكون بدليلاً عن أخوت Imhotep في الوجدان المصري.

أريد أن أقول كان الطب القديم في مختلف الحضارات على وعي بأهمية الروح المعنوية للمريض

الدواء وأحس به العضو العليل جذبه تلك الطبيعة جديباً بوجوب المبدأ الفلسفى «الشىء يجذب الشىء» واستعانت بالقوة المدبرة لطبيعة الدواء على دفع العلة تماماً كما يستعين المحارب بقوة من يعينه على خصميه ليدفعه عن نفسه<sup>(15)</sup>.

وتقوم الطاقة الحيوية في العلاج الصيفي بدور الطبيعة الفاعلة، وتأمل دورها الحيوى بمقارنتها بالنزعة الآلية في الطب الحديث بقصد مثالين:

**الأول:** بينما يعمل العلاج الغربي على تعويض المريض ما يفتقر إليه أو يفتقد بالمرض: بالحديد في حالة الأنemicia والأنسولين في حالة السكر والكتالسيوم في حالة العظام، وهذه لا تعنى أن أعضاء الجسم قد عادت إلى أداء وظائفها بصورة سليمة، فإن العلاج بالإبر الصيفية<sup>(\*)</sup> يعمل على تمكين الأعضاء من إنتاج الماء الذي يفتقر إليها.

**الثاني:** بقصد كسور العظام أو انفصالها بعد إتصال: بينما يلجأ الطبيب الغربي إلى أن يصل ما انفصل بنفسه لأنها - أي العظام - بوجوب المذهب الآلى - متصرف بالقصور الذاتي، ومن ثم يحدث كثيراً - حتى على أيدي كبار أطباء العظام - الاضطرار إلى إعادة التجييس حين لا تكون العظام قد استقرت في موضعها، فإنه بوجوب المذهب الحيوى تُستفترط الطاقة الحيوية وفقاً للعلاج الصيفي، ومن ثم تسعى العظام بذاتها إلى مستقرتها ومستودعها تماماً كما تسعى زهرة عباد الشمس إلى مصدر الضوء ينبع حيتها وتفتحها، ثم أنها تعمل بعد ذلك على سرعة التحام العظام والتمامها<sup>(\*\*)</sup>.

أود أن أبدى بعد ذلك ملاحظتين:

(\*) يشعر المريض أثناء وخز الإبر بقوة تجذبها إليها إلى أن تقف عمودية على سطح الجلد.

(\*\*) وقد اعترف الطبيب الغربي أخيراً بالدور الایجابي لطبيعة الكائن الحي من أجل حماية ذاته من خلال تكوين الأجسام المضادة التي تتفق على الجراثيم الداخلية على الجسم.

ودورها في إقام الشفاء الأمر الذي تجاهله الطب التجريبي الحديث.

والمبدأ الثالث المترعرع عن النظرية الكلية والمتلعق بمنجم المعرفة المتلق معها هو الفراسة (بكسر الفاء)، يقول ثورنديك: إن قبول نظرية الجشطلت يفضي إلى الثقة في علم الفراسة، وإنما اختفت نظرية الفراسة باختفاء النظرية الكلية بعد شيوخ الأبحاث التحليلية التي صحت بدلالة الكل وخصائصه لحساب الجزء<sup>(19)</sup>.

وتعريف الفراسة إنها استدلال على الخلق الباطن بالخلاقة الظاهرة، غير أن الفراسة ليست مقصورة على الخلقة والأخلاق، وإنما هي بوجه عام التعرف على الخفي بالجلل أو بالأخرى هي استدلال على الباطن بالظاهر مباشرة دون واسطة.

وفي تصنيف ابن سينا للعلوم يفرق بين أقسام أصلية وأخرى فرعية، من الأقسام الأصلية العلم الطبيعي الذي يتفرع عنه الطب ثم يعقبه علم الفراسة ضمن الأقسام الفرعية مما يدل على الصلة الوثيقة بينهما، بل إن فخر الدين الرازى يذكر أن علم الفراسة مستند إلى العلم الطبيعي وأنه مثل الطب سواء بسواء.

غير أن الفراسة لم تكن مقصورة على الطب، وإنما تغلغلت في شتى مظاهر الحياة وبخاصة في البيئة العربية ومن ثم تفرعت فروعاً فكان منها علم الاختلاج - أي التعرف على الخلق الباطن بكل خلجة من خلจات الوجه أو علم الأسaris وعلم الشامات وعلم قيافة الأثر وعلم البشر<sup>(\*)</sup>، بل أنه كان وسيلة المعرفة في علوم كثيرة، قيل لابن حجر العسقلاني:

إنك تقول للحديث النبوى - بمجرد سباعه - هذا يصح وهذا لم يثبت فعن من تقول ذلك؟ فقال أرأيت لو أتيت الناقد - من النقد بمعنى النقود - فأرأيته دراهمك فقال هذا جيد وهذا برج، أكنت تسأله عن ذلك أم تسلم له الأمر فقال: بل أسلم له الأمر؟ فقال: فهذا كذلك<sup>(20)</sup>.

ولهذه الأهمية البالغة للفراسة في الحياة والفكر يقول الدكتور يوسف مراد<sup>(21)</sup>: كانت المكانة الأدبية في العصرين القديم والوسط لأربع شخصيات: الطبيب والمفترس والمنجم والساحر، وربما اجتمعت هذه في شخص واحد<sup>(22)</sup>.

ولم تكن الفراسة مقصورة على الحضارة العربية الإسلامية، بل هي السمة المعرفية لمختلف الحضارات القديمة.

يقول جون ولسن عن الحضارة المصرية القديمة: إن المنهج المعرفي في تشخيص المرض وتحديد أسلوب العلاج، كان يعتمد على الحدس الذي يتلاءم مع النظرية الكلية<sup>(23)</sup>.

بل إن الفراسة في الطب الصيني تبلغ حدأً أنها لا تعتمد على الرؤية أو البصر فقط، ذلك أن الطبيب المتمرس كان يتعرف على نوع الحمى بمجرد أن يلتح غرفة المريض ويشم رائحتها<sup>(24)</sup>. An experienced practitioner will, for instance, recognize the smell of fever as soon as he enters the Patient's room

ولقد كانت كتب الفراسة ضمن التراث المنقول عن اليونان إلى المسلمين عبر السريان، فيذكر حاجي خليفة أن كتاب الرازى في الفراسة مأخوذ عن كتاب

(\*) من أنظمة الزواج في الجاهلية نظام أثبه ببعض الأزواج فإن ولدت فإن أحد العارفين بالعيادة يحدد نسب الطفل وأبواه بمجرد نظرة عابرة إلى وجه المولود وأبيه، هذا وقد امتد علم الفراسة إلى عالم الحيوان إذ كان راضة (أي مروض) البهائم يستدللون بالصفات المحسوسة للخيل والبغال والخيير على طباعها.

إن القول بإهام الأطباء ليس إلا وهما، وباسم العلم ينبغي أن نطرح هذا الإهام جانباً، إن القائلين بأن الطب ممارسة يطلقون إشاعتين:

الأولى: إن الطبيب العالم هو أكثر حرجاً من المتمرس عند سرير المريض.

الثانية: إن نجاح الطبيب إنما يقاس بعدد مرضاه الذين شفاهم.

والرد على القول الأول أن الروح العلمية تأبى على الطبيب العالم أن يمارس العمل إلا بعد معرفة دقيقة بكل الآثار المترتبة على الأدوية المستعملة.

والرد على القول الثاني أنه ينبغي أن يثبت علمياً أنه هو الذي شفاهم، وليس من دليل على هذا الإهام في العلاج سوى وقائع عرضية قد يدعها الجاهل أو الدجال بمثيل ما يدعها الطبيب المتمرس.

والخلاصة أن الطب التجريبي لن يتقدم إلا بنشر الروح العلمية بين الأطباء، وأن الطب ينبغي أن يقام على نفس المبادئ التي تقوم عليها العلوم التجريبية الأخرى<sup>(27)</sup>.

ولا شك أنه لا غنى للطب عن التحليل، غير أن ذلك لا يعني إنكار الحدس الطبي، ذلك أن الحكم بأن نجاح الطبيب إنما يقاس بعدد مرضاه ليست إشاعة يطلقها المتمرسون غير العلماء من الأطباء إنما هو حكم التعاملين معهم من المرضى، ذلك أن استعادة الصحة هي الغاية التي يسعى إليها المريض بصرف النظر عن كون معالجة عالماً أو متمرساً.

على أية حال ينبغي نقل المشكلة من نطاق الطب إلى نطاق الفلسفة، لأن المفاضلة بين التحليل والحدس إنما هي مفاضلة بين منهجين في الفلسفة فضلاً عن أن الجدل من شأن الفلسفة لا الطب.

ولقد جاء دفاع برجسون عن «الحدس» رد فعل لييار جارف من النزعة التحليلية التي واكبت تقدم

لأرسططو اسمه «سر الأسرار»<sup>(25)</sup>، وظاهر من العنوان أن الكتاب منحول.

ولا شك أن الفراسة كانت تستند إلى خبرة طويلة ومارسة متصلة ومواظبة تامة وحواس قوية وإحاطة بالقوانين الكلية للطب.

غير أن الخبرة وجدتها لا تكفي من أجل توليد الفراسة، وإنما يتطلب الأمر بصيرة نافذة تنم عن استعداد مخصوص لدى بعض الأفراد الموهبين، وكما أن مجرد التحصيل دون ذكاء لا يتيح للطالب أن يكون متفوقاً، كذلك الممارسة دون بصيرة نافذة لا تجعل المتمرس متفرساً، وكلما كانت النفس صافية كانت أقدر على الفراسة، إذ أن الهموم والغموم تحول دون تحقّقها، ومن ثم كان لا بد من تطهير النفس وتهيئتها لكشف الحقائق الخفية وتفسير العلامات الظاهرة، وكان يستعان على ذلك بسماع الموسيقى.

والفراسة شأنها مبدأ الغائية غير خاصصة للتجريب، ومن ثم لقيت اعراضاً بل انتقاداً من منظور الطب الحديث، والواقع أن الأقدمين أنفسهم قد تنبهوا إلى ما في الفراسة من حكم متسرع مفتقر إلى الرؤية، فانتقدوها ابن رشد وعددها معرفة ظنية لأن العلاقة بين الرمز والرمز واهية<sup>(26)</sup>.

غير أن الطب الحديث يرفض فكرة الفراسة لأنها منافية ومجافية للتخليل. أهم خصائص الطب التجريبي، يقول كلود برنار: أنه ينبغي مقاومة فكرة الحس الطبيعي أي أن الطبيب يتغافل بضرب من الحدس أو الإهاب، ذلك أن الحس الطبيعي فكرة غامضة لا تثبت أمام العلم، بينما ينبغي للطب أن يكون يقيناً، ولن يكون كذلك إلا أن أصبح الطب علمياً، إذ ليس من المعقول ألا يكون الطبيب عالماً، إن المروجين لفكرة الحس الطبيعي إنما يسيئون إلى تقديم الطب، لأنهم يبالغون في تقدير شخصية الطبيب ويخسرون من قيمة العلم.

التحليل قاصرة، إنها كالبحث عن الأصل في الترجمة، وان الفرق بين التحليل والخدس هو كالفرق بين الاستئاع إلى قصة تروي - حيث انفصال المستمع عن وقائعها - وبين معايشة أحدها، أو هو كالفرق بين صور مختلفة تراها لمدينة ما وبين الحياة في أرجائها<sup>(28)</sup>.

هذه دعوة برجسون إلى العلماء ألا يقتصروا على منهج التحليل حيث التجزئة والتفتت وإنما ان يستكملوه بنظرية حدسيّة تستحوذ على الموضوع في كلية وتنفذ إلى باطنها بصيرة نافذة، وهي دعوة كرّرها كثيرون اذكر منهم بصدق الطب جورج سارتون الذي دعا إلى إحياء الروح الابقراتية بنظرتها الكلية الشمولية إلى المريض<sup>(29)</sup>.

هكذا تتضح الجوانب المختلفة للنزعة الشمولية الكلية: التوازن - الغائية - الفراسة أو الخدس لتشكل الاطار الفلسفى للنسق الطبى القديم.

وكان لا بد أن تتسق الصورة مع المادة أو الصياغة مع المضمون، فكان أن اخذت الأحكام الطبية في المؤلفات التعليمية صيغة قضايا كلية، ووصف الطب القديم بأنه طب الكليات واستهل ابن سينا مؤلفه في الطب بفصل عن الأمور الكلية، وسمى ابن رشد كتابه في الطب باسم «الكليات في الطب»، وإليك أمثلة من العبارات الكلية التي أوردها أبقراط في كتابه «الفصول».

. الطب صناعة وأى صناعة إنما هي استكمال لعمل الطبيعة وتمكين لها.  
. تعمل الطبيعة البشرية على البقاء على ما هو نافع وخارج ما هو ضار.  
. المرض خروج نافع أو بقاء ما هو ضار.

العلوم التجريبية التي آزرها فلسفياً المذهب المادي ينزعته الآلة.

ان الكائن الحي من منظور هذه النزعة آلة حية<sup>(\*)</sup> يسري عليها ما يسري على الموضوعات غير العضوية. ويخلص دفاع برجسون عن الخدس - وهو - كما سبق القول - مقتنٍ بالنظرية الكلية من جهة وبالذهب الحيوى من جهة - في النقاط الآتية:

1 - الخدس رؤية جوانية إلى الحياة تدرك تدفقها وحيويتها وديموسيتها بينما لا يفيد التحليل إلا معرفة برانية حيث تتوقف عند الخواص الظاهرة للأشياء.

2 - بينما يتواجد الخدس في الدعيمة والحركة والحياة فإن التحليل يتوقف عند الثابت أو الساكن.

3 - بينما يقتصر التحليل في العلوم البيولوجية على الوصف الظاهري لأعضاء الكائن الحي مع مقارنته بالأنواع أو الفصائل الأخرى فإن في الخدس ادراكاً للكائن الحي في بيئته الطبيعية متيناً سلوكه وتصرفاته الطبيعية.

4 - ولن يكشف التحليل في مجال علم النفس إلا عن كثرة من الحالات النفسية التي منها جمعت وصنفت لا يمكن أن تكشف عن حقيقة النفس وحيويتها وديموسيتها التي ستظل دوماً ثابتة التحليليين الذين طلبو الخدس بمنهج التحليل، بخلاف مذهب الجشطلت بمنهجه الحدسي الذي يكشف عن ثراء في الأحساس والمشاعر وعن تنوع في الكيفيات وعن استبصار في الرؤية وعن استحواذ على الموضوع وادراك له في كلية متحاشياً عيوب منهجه التحليل حيث التجزئة والتفتت.

5 - وحين يرد التحليل المركب إلى البسيط يعبر عن شيء بدلالة شيء آخر، ومن ثم تظل المعرفة بواسطة

(\*) عبارة الفيلسوف المادي La Mettrie

.. نقاط الخرج وكمال الصحة إنما يكونان عند الاستفراغ الواقع بعد النضج<sup>(31)</sup>.

هكذا يتلقى الشكل مع المضمون أو الصورة مع المادة أو المنطق مع المذهب - حيث القياس<sup>(30)</sup> منطق الكليات - لتشكل جميعها الأساس الفلسفية للنسن الطبي القديم.

ولكن الصورة لن تكتمل إلا ببيان موقف الإنسان من الكون من منظور فلسفى، ودور الطبيعة في المرض والتشخيص والعلاج من منظور طبى ، هذا وقد سبقت الاشارة إلى أن الفكر القديم كان ينظر إلى الإنسان على أنه الكون الصغير Microcosm كما ينظر إلى العالم باعتباره الإنسان الكبير.

إن فكرة الوحدة أو النظرية الكلية الشمولية قد سادت تصوّر الإنسان القديم في علاقته مع الطبيعة، فهي علاقة عضوية تجمع أطرافاً ثلاثة: الجسم - النفس - الوسط البيئي والاجتماعي .

أما بين الجسم والنفس فتتجلى في أن اللفظ الدال على الجسم هو نفسه الدال على الروح «شن» في التعبير الصيفي.

وأما بين الإنسان والكون فإن المدف - في العقيدة الطارمية - ليس هو السيطرة على الطبيعة وإنما على حد تعبير الصديق الأستاذ الدكتور عبدالغفار مكاوى - محبتها ومعانقتها والاندماج فيها<sup>(32)</sup> لأن الإنسان من الطبيعة نشاً وفي أحضانها يعيش<sup>(33)</sup> .

ولقد ذهب المؤسس الثاني للعقيدة الظاوية Chuang Tzy تشوانج تزو إلى القول: كل ما هو طبيعي وهو الأحسن وما هو صناعي هو الأسو Whatever is natural is best, Whatever is artificial is worst وفي عبارة أخرى يقول: ما هو من الطبيعة

. يقاس عمل الطبيب على عمل الطبيعة في البقاء على النافع وخارج الضار<sup>(30)</sup>.

ولتطبيق هذه القواعد الكلية على الحالات المرضية لا بد من استدلال ، والاستدلال المتسق مع منطق الكليات هو القياس، ويشير إليه أبقراط صراحة في مستهل كتابه بقصد الحديث عن صعوبة مهنة الطب فيصف القياس<sup>(30)</sup> بأنه عسير، ويعنى به القياس فعل الطبيب على عمل الطبيعة، والميك غودجـ من الشخص وغودجـ من العلاج باستخدام القياس حيث تشير المقدمة الكبرى دائمـاً إلى عمل الطبيعة التي يهتمـي بهاـ الطبيب.

المثال الأول:

تعمل الطبيعة على البقاء على ما هو نافع وخارج ما هو ضار (مقدمة كبرى) ولكن الخارج نافع وليس ضاراً.

.. عجز الطبيعة عن امساك النافع دليل انقهارها بالمرض.

المثال الثاني: بقصد المشكلة أو السؤال:

هل يبادر الطبيب إلى استفراغ الصديد من الدمامـل والخراـجـ والأورام دون انتظـار نضـجهـ لما في ذلك من اطالـةـ المـرضـ أمـ يـكونـ الاستـفرـاغـ بعد نضـجهـ ؟

الجواب في صورة قياس:

الطب محاـكـاةـ للطـبـيـعـةـ وعملـ الطـبـيـبـ هوـ أنـ يـحـاذـيهـ وـيمـحاـكيـهاـ (مـقدـمةـ كـبـرىـ) تـمـكـنـ الطـبـيـعـةـ منـ الدـفـعـ التـامـ بعدـ النـضـجـ لأنـ رـقـةـ المـوـادـ مـانـعـةـ منـ سـهـولةـ خـروـجـهاـ (مـقدـمةـ صـغـرىـ).

(\*) العبارة الواردة في النص العربي هي: القضاء عسر ويسـرحـهاـ ابنـ النـفـيسـ بـأنـ المـقصـودـ بـالـقضـاءـ هوـ الـقيـاسـ .

(\*\*) أبـقرـاطـ سابقـ علىـ أـرـسـطـوـ ولـقدـ كانـ الـقـيـاسـ مـعـرـوفـاـ ومـتـداـولاـ بـيـنـ النـاسـ قـبـلـ أـرـسـطـوـ وـأـنـ يـرـجـعـ التـنـظـيرـ وـالتـقـنـينـ إـلـىـ أـرـسـطـوـ.

(ت 638 هـ) الحب منشأ الوجود وفقاً للحديث القدسي «كنت كنزًا مخفياً فاحببت أن أعرف فخلقت الخلق فيه (أي بالحب).

ولقد انعكس هذا التصور الفلسفى للصلة العضوية بين الإنسان والطبيعة على الطب بدءاً من تعريفه: الطب صناعة وكل صناعة هي محاكاة للطبيعة، فما على الطبيب إلا أن يمحاذه عمل الطبيعة.

غير أنه إذا كان للطبيعة دور ايجابي في العلاج فقد كان لها أيضاً أثر سلبي على صحة الإنسان، ذلك أن الأبدان - على حد تعبير أبقراط «تغير بتغيير البلدان والأهوية والمياه»، ومن ثم فإنه إذا كان على الطبيب أن يمحاذه فإن على المريض أن يحذر تقلباتها، بل إن على الطبيب أن يدرك دورها حين التشخيص ومن ثم فإن على الطبيب إن دخل بلدًا أن يعرف موضعها: أشرقة هي أم غربية، أشماليه هي أم جنوبية، عشيبة أم جراء، أجار ماوتها أم غير جار، أصخرية أرضها أم رملية، أفي سهل يقيم المريض أم في جبل، أمن البدو هو أم من الريف<sup>(37)</sup>.

ولا يمثل أثر الطبيعة في تغير المناخ وتبدل الفصول ومؤشرات البيئة المكانية فحسب وإنما في أثر اختلاف أوجه القمر على الحالات الانفعالية والاضطرابات العقلية للإنسان.

والواقع أنك إذا ألقيت نظرة عابرة على فهرس موضوعات أي كتاب في الطب القديم فستتجده قد أفرد باباً بأكمله عن أثر البيئة الطبيعية في الأهوية (جمع هواء) والأمواه، أصناف المياه، إلى غير ذلك من الجوانب المعبرة عن دور المكان في صحة الإنسان.

بل إن الأمر بصدور أثر الطبيعة على صحة الإنسان يتجاوز المكان إلى الزمان، إذ يبيح في كل فصل من فصول السنة ما يشكل طبيعة ذلك الفصل من

جواني وما هو من الإنسان برأني<sup>(34)</sup> What is of nature is internal, what is of man is external

لقد جعلت الطبيعة للهchan أربع أرجل ليركض وجاء الإنسان ليحمله السرج ويقيده باللجام، أرجل البطل قصيرة فان سعى الإنسان إلى تطويلها جلب لها الآلام، أرجل الكركى طويلة فان حاذنا بترها جلبنا عليه الشقاء، فليس لنا أن نقصر ما هو بالطبيعة طويل ولا أن نطيل ما هو بالطبيعة قصير<sup>(35)</sup>.

الحياة في وفاق مع الطبيعة تحجل السعادة، اتباع ما يقدمه الإنسان مصدر الشرور والآلام، وكلما بذل الإنسان جهداً لترويض الطبيعة كان ذلك أدعى إلى أن يجعل على نفسه المؤس والشقاء The more man prevails in taming nature, the more misery and unhappiness there will be.

وقارن هذا التصور الشاعري الذي يبلغ درجة حنين الطفل إلى أمه بالتصور الحديث الذي أرسى أسسه أبو الفلسفة الحديثة ديكارت حين أعلن: أن غرضه هو وضع فلسفة عملية بدلاً من الفلسفة القديمة بحيث نجعل من أنفسنا سادة مسيطرین على الطبيعة مالكين لها<sup>(36)</sup>.

وأكاد أقول - دون خشبة الوقوع في مزاق التعميم: إن مبدأ الحياة في وفاق مع الطبيعة لم يكن مقصوراً على - نحو ما يعرفه دارسو الفلسفة - على الفلسفة الرواقية، وإنما ساد الفكر القديم بأكمله على اختلاف حضاراته.

بل إن هذا الوفاق يصل إلى درجة العشق والهيمان ابتداء من أسطورة الأروس Eros الله الحب لدى اليونان والتي أشار إليها أفلاطون في حواره «المأدبة»، ومروراً برسالة ابن سينا في «العشق» حيث سريان قوة العشق في كل الهويات أو الموجودات نازعة بذلك إلى تحقيق الخير والكمال وانتهاء باعتبار ابن عربي

امها - أي الهواء والغذاء - بمثابة الوقود الذي به تؤدي الأعضاء وظائفها، وإن قوة الحياة تسري فيها باعتبارنا جزءاً من الكون، وتختخل أوجه الحياة على الأرض، ومن ثم فإن أي تغير في الطبيعة لا بد أن يكون له أثره على الطاقة الحيوية في أجسامنا، ان انفجار الطاقة الحيوية في الربيع له أثره على الكائنات جميعاً من نبات وحيوان وإنسان، ومعظم الناس يستشعرون تدفق الحيوية فيهم عند قدوم الربيع، بل إن هذه الطاقة الحيوية تتفاوت بين الليل والنهار، فيتراجع الجانب السلي أو «الين في المساء»، بينما يتغلب الجانب الاجيادي أو «اليانج» في الصباح<sup>(39)</sup>.

ولاختلاف أوجه القمر بدوره أثره على الحالات النفسية والعصبية لكثير من الناس<sup>(40)</sup> كما أن لسنة الشمسية صلتها بجسم الإنسان، فعدد نقاط غرس الإبر عند مرات الطاقة الحيوية 365 نقطة كعدد أيام السنة<sup>(\*\*\*)</sup>، إذ الإنسان هو العالم الذي فيه تتجلى مظاهر العالم الكبير<sup>(40)</sup>.

هكذا تكتمل ملامح النسق الطبي القديم، ودور الفلسفة في تحديد هذه الملامح.

وهكذا أيضاً تبدو لنا من بعيد ملامح النسق الطبي الحديث على نحو مقابل، كما تبدو في الأفق النظريات الفلسفية التي شكلت خطوطه العريضة والتي عليها يقوم: المذهب المادي في مقابل المذهب الحيوي، التزعة الآلية بدليلاً عن التزعة العضوية، مذهب الكثرة والتجزئة مكان مذهب الوحدة والنظرية الكلية، التحليل بدليلاً عن الحدس ثم منطق الجزيئات القائم على الاستقراء ليحل محل منطق الكليات القائم على القياس.

العلل<sup>(\*)</sup>، فأكثر ما يهيج في الربيع علل الدم، وفي الصيف علل الصفراء، وفي الخريف علل السوداء وفي الشتاء علل البلغم<sup>(38)</sup>.

بل تبدو الصلة أوثق ارتباطاً حين تصبح ثلاثة الأطراف: الطبيعة - الزمان الفلكي - عمر الإنسان، يقول أبو زيد البلخي : إن فصول السنة نظائر عمر الإنسان: الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، وحكم كل منها فيما يوجد من الاختلاط حكم نظيره من الفصول: يغلب في حكم الصبا الدم وتكون غلبة هذا المزاج في فصل الربيع ويغلب في حكم الشاب الصفراء وتكون غلبة هذا المزاج في فصل الصيف، ويغلب في حكم الكهل السوداء وتكون غلبة هذا المزاج في فصل الخريف بينما تكون غلبة البلغم على الإنسان في فصل الشتاء مناظرة للشيخوخة.

يعرض في الربيع الوسواس السوداوي والجنون والصرع والذبحة، وفي الصيف حميات وقيء ورمد وقرح وعفن، وفي الخريف ذبحة وربو وزلق الأمعاء وقرحة معوية وانتفاخ الطحال أما في الشتاء فأمراض البرد والرئة.

ومن ثم ينصح أبقراط الطبيب بضرورة مراعاة أوقات السنة وسن المريض.

اما في الطب الصيني فإن الطبيعة تتخذ طابعاً أكثر شمولاً وأعمق رابطة من مجرد أثر المكان أو الزمان على صحة الإنسان، ذلك أن الطاقة الحيوية Chienergy التي تسري في الجسم إنما يستمدتها الإنسان من الهواء الذي تستنشقه، ومن الطعام الذي تتغذى عليه - الطعام الطبيعي لا العلب المحفوظة بطبعية الحال.

(\*) لاحظ تطبيق المبدأ الفلسفى: الشىء يجذب الشىء.

(\*\*) لاحظ الاشتغال اللغوى للفظ «القمر» بالفرنسية Lune منه بالإنجليزية Lunacy بمعنى الجنون، Lunatic بمعنى مجنون بينما،

Lynary Lunar بمعنى قمرى.

(\*\*\*) زادها الطب الصيني الحديث إلى 1000 نقطة.

معينة، ولكن ذلك لا يعني تحرره التام من سلطان الفلسفة باسم العلم، لأنه ان رفض المذهب الحيوي العضوي فإنما ليتني المذهب المادي الآلي، تدل على ذلك كثرة إشاراته إلى مبدأ الحتمية وتطبيقه في مجال الطب، وهو وإن لم يقبل أن الفارق بين الكائنات العضوية وغير العضوية فارق في الطبيعة، فإنما ليقيم جسراً بين عالم الأحياء وعالم الجنادات، ومن ثم أن يرد الظواهر البيولوجية إلى عوامل فيزيقية وكيميائية (٤٠) وهذه نزعنة فلسفية تعرف بالنزعة الرديئة reductionism.

ومن حقه أن يشير إلى أن الطب الحديث قد استغنى تماماً عن نظرية الأمزجة أو الأخلاط لما تتضمنه من إقامة فوارق بيولوجية بين الأفراد، ولكن ذلك يعني تبني المبدأ المقابل وهو تماثل البشر جميعاً من الناحية البيولوجية، بل أن هذا التماثل يمتد إلى عالم الحيوان.

ولقد كان محقاً حين أشار إلى أنه لا يجوز للمذهب الوصعي positivism أن ينفي المذاهب الفلسفية باسم العلم، لأنه - أي المذهب الوصعي - بدوره مذهب فلوفي.

ولكنه انساق إلى نفس المأخذ، إذ لا يحق للطب التجاري أن يدعي التحرر من أي مذهب فلسفى باسم العلم، لأن النزعنة العلمية، أو التعالية Scientism هي بدورها مذهب فلسفى أهم معالله هي:

وأخيراً وليس آخرأ: لقد أدى على الناس زمان يطلبون فيه السيطرة على الطبيعة وتملكها بعد أن كان الإنسان يخوضها ويعشقها عشقأً بلغ به حد الاتحاد معها وتبادل اسميهما: العالم الصغير والانسان الكبير (٤١).

**ألا يتبع الطلب التجاريي الحديث أي مذهب فلوفي؟**

يبدو أن القول بأسس فلسفية للطب التجاريي أو بأطرواف ومقولات فلسفية تحدد اتجاهات الطب الحديث ليس أمراً مسلماً به، بل إنه يلقى معارضة شديدة بدعوى أن الانتقال من النسق الطبي القديم إلى النسق الطبي الحديث إنما هو انتقال من طور الفلسفية إلى طور العلم، ومن ثم فإن الطب قد تحرر تماماً من المذهب الفلسفية (٤٢).

يقول كلود برنار: إن الطب التجاريي ليس مذهبأً جديداً في الطب، وأنه لم يعد في حاجة إلى أية تسمية مذهبية، فهو ليس حيائياً Vitaliste (٤٣) ولا حيوياً animiste ولا عضوياً organiciste ولا جمادياً (أو صلبياً) solidiste ولا خليطاً أو مزاجياً humoral لأنه لن يكون هناك سوى العلم . . . وإن كان لا بد من مذهب فلوفي للطب التجاريي فهو أن يكون بلا مذهب، ذلك لأنه بطبيعته مناف لكل مذهب ولكل نحلة ولا يتقيد بأي نوع من المذاهب الطبية، والردد على ذلك:

1- إن كلود برنار محق حين رفض مذاهب طيبة

(\*) كفيس وليل فقد كان قيس مجنون بي عامر - اذا سئل عن اسم نفسه قال ليل!

(\*\*) مذهب يبني القول بأن الفارق بين الكائنات الحية وغير الحياة فارق جوهري في الطبيعة، animism مذهب يصنف الحياة على الجنادات كالقول بأن الاجرام السماوية كائنات حية عاقلة.

(\*\*\*) ويمكن الاستطراد في القول بأنه رفض مذهب الكلية والوحدة wholism - monism ليتبي مذهب العناصرية والكثرة elememtisism - pluralism - واستبعد منطق الكليات universals ليتعنق منطق الجزئيات particulars وانتهنج نهج الاستقراء بدليلاً عن منهج القياس.

حد تعبير أرسطو. كذلك إن أردت أن تتحرر من المذهب فعليك أن تمذهب سواء في الطب أو في غيره.

إن المفهوم الحديث للعلم لم يشكله العلماء وحدهم بل لقد أسمهم فيه الفلسفة بدور عظيم الأهمية... إذ كانت لفلاسفة ذلك العصر (القرنين 17، 18) رؤية واضحة تمام الوضوح لمتطلبات العلم<sup>(42)</sup>.

إن القاعدة الثانية من قواعد المنهج الديكارتي - أعني قاعدة التحليل<sup>(43)</sup> - ليست مقصورة على المشكلات الفلسفية ولا تتعلق بالرياضيات فحسب، ولكنها تمتد إلى سائر العلوم كالكيمياء والأقريباذين بل حتى التشريح.

يقول كلود برنار بصدق أهمية التشريح عبارة شديدة الشبه بقاعدة التحليل الديكارتي: إننا عاجزون عن الانتداء إلى قوانين المادة الحية وخواصها إلا بفكك الأجسام الحية للوصول إلى بنية الباطنية، فلا بد إذن من تشريح الحي لنكشف أجزاء الكائن الحي الداخلية لترأها كيف تؤدي وظائفها<sup>(43)</sup>.

بل إن الأمر بصدق دور الفلسفة في التقدم العلمي الحديث يتتجاوز المنهج إلى المذهب؛ ها هو ديكارت (ت 1650) أبو الفلسفة الحديثة - يذهب إلى أنه يمكن تفسير كل ما يصدر عن الحيوان... تفسيراً آلياً بحث بفضل قوانين الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء... بل إن الجسم الإنساني آلة تخضع لقوانين الميكانيك والكيمياء والأنحاء وعلم وظائف الأعضاء<sup>(44)</sup>.

أليست هذه هي نقطة البدء في مبدأ الرد reduction الذي التزم به العلوم الحديثة بما في ذلك الطب؟

1- إتخاذ المنهج الاستقرائي منهجاً وتبني المذهب التجاري مذهباً.

2- الاستناد إلى التزعة الآلية والإقرار ببدأ الختمية بدليلاً عن المذهب الحيوي بزرعته الغائبة.

3- الاعتماد على التحليل، وهذا لا يخلو من فلسفة، بل إنه ثانٍ قواعد المنهج الذي أرساه أبو الفلسفة الحديثة ديكارت.

4- تبني مبدأ الرد reduction أي رد الظواهر البيولوجية إلى تفسيرات فيزيائية وكيميائية باعتبار أن هناك تسلسلاً هرمياً بين الموجودات جميعاً قاعده عالم الجماد ثم الكائنات الحية وقمةه الإنسان، وأن ما هو أدنى يؤثر فيها هو أعلى ويفسره وليس العكس على نحو ما كان يعتقد الفلاسفة الاقدمون وبخاصة فلاسفة الإسلام.

وليس أبلغ في الرد على كلود برنار من أن كتابه «مدخل إلى دراسة الطب التجاري»، الذي يدعو فيه الأطباء إلى «علمية» الطب إنما يهم المشتغلين بالفلسفة، ولا يكاد يعرف معظم الأطباء - باستثناء فئة قليلة من علمائهم - من أمر ما ورد فيه شيئاً، إنه كان كتاب أو مقرر في مدخل أي علم من العلوم يتعلق بالفلسفة بأكثر مما يتعلق بالعلم الذي هو مدخل إليه، فالمدخل إلى دراسة القانون مثلاً يتعلق بفلسفة القانون ولا يتعلق بالقوانين ذاتها - إلا على سبيل ضرب الأمثلة - ولا شأن له بأي فرع من فروع القانون.

أريد أن أقول لا شيء اسمه التحرر من المذاهب الفلسفية إلى اللامذهب أو إلى اللافلسفة، فكما أنك إن أردت أن تنتقد الفلسفة فعليك أن ت الفلسف - على

(\*) قاعدة التحليل: أن أقوم بتقسيم كل واحدة من الصعوبات التي أفحصها إلى الأجزاء التي يمكن أن تقسم إليها والتي تحتاج إليها من أجل حلها على أحسن وجه.

الحاضر، وهذه إن عرفتها أمانى الإنسان وأماله فإنها لا تعرفها الطبيعة.

5- إن هذا المذهب من ناحية المنطق خلط، ومن ناحية الفلسفة عقيم ومن ناحية العلم خطأ، ومن ناحية مستقبل الفكر عقبة في سبيل فهم الكون فهـا عقلياً سليماً.

أما أنه من ناحية المنطق خلط فحين يضع أواخر الأمور قبل أوائلها، وأما أنه من ناحية الفلسفة عقيم فإنه يضع للمعرفة الإنسانية حدًّا لا تتعاده، إذ يظل البحث الفلسفـي مقصوراً على محاولة التعرف على الأسباب المـتهـمة إلى هذا الغـایـاتـ المـحدـدةـ.

وأما أنه من ناحية العلم خطأ فلان التجربـةـ العلمـيةـ لا تكشف عن القـوـةـ الـخـفـيـةـ التي تسـخـرـ الأـسـبـابـ لـتـحـقـيقـ تـلـكـ الـغـایـاتـ، فـضـلـاًـ عـنـ أـنـ الـعـلـمـ لاـ يـعـرـفـ إـلـاـ أـسـبـابـ مـؤـدـيـةـ إـلـىـ غـایـاتـ، لاـ غـایـاتـ مـهـيـةـ للـأـسـبـابـ، فـإـنـ قـيلـ أـنـ الـمـاـشـاهـدـةـ الـحـسـيـةـ دـوـنـ الـتـجـرـبـةـ الـعـلـمـيـةـ تـدـلـ عـلـيـهـاـ، فـإـنـ ماـ تـدـلـ عـلـيـهـ الـمـاـشـاهـدـةـ الـحـسـيـةـ يـخـتـمـ عـدـةـ تـفـسـيرـاتـ لـيـسـ الـقـوـلـ بـالـغـایـاتـ أـصـدـقـهـاـ وـإـنـ كـانـ أـبـسـطـهـاـ وـأـيـسـرـهـاـ بـعـثـاـ(45).

ولقد عـدـتـ نـظـرـيـةـ الـغـایـاتـ مـائـلـةـ لـلـنـظـرـيـةـ الـبـطـلـمـيـةـ فـيـ الـفـلـكـ، كـلـاـهـاـ اـتـخـذـ مـنـ الإـنـسـانـ مـرـكـزاـ أوـ مـحـورـاـ، وـكـمـاـ اـقـضـيـ الـأـمـرـ ثـوـرـةـ كـوـبـيـرـنـيـكـيـةـ لـتـصـحـيـحـ مـسـيـرـةـ الـفـكـرـ الـفـلـكـيـ كذلكـ كـانـ لـاـ بـدـ مـنـ ثـوـرـةـ فـكـرـيـةـ لـتـصـحـيـحـ مـسـارـ الـعـلـمـ.

بلـ لـقـدـ بـلـغـ نـقـدـ الـغـایـاتـ مـنـ الـحـدـهـ حدـاـ عـدـتـ فـيـ «ـأـثـرـ أـسـطـوـرـيـاـ»ـ مـنـ مـخـلـفـاتـ النـزـعـةـ الـحـيـوـيـةـ animismـ حيثـ إـضـفاءـ الـحـيـاةـ عـلـىـ الـجـادـ، وـبـدـاـ ذـلـكـ لـأـصـحـابـ النـزـعـةـ الـعـلـمـيـةـ أـمـرـاـ ضـرـوريـاـ مـنـ أـجـلـ إـزـاحـتـهـاـ عـنـ طـرـيقـ تـقـدـمـ الـعـلـمـ(46).

1- نـقـدـ مـبـداـ «ـالـغـایـاتـ»ـ مـنـ مـنـظـورـ فـلـسـفـيـ مـنـ أـجـلـ دـعـمـ مـبـداـ «ـالـحـتـمـيـةـ»ـ مـنـ مـنـظـورـ طـبـيـ.

أـ نـقـدـ مـبـداـ الـغـایـاتـ مـنـ مـنـظـورـ فـلـسـفـيـ

سبـقـتـ الإـشـارـةـ إـلـىـ التـلـازـمـ الوـثـيقـ بـيـنـ المـذـهـبـ الـحـيـوـيـ وـبـيـنـ النـزـعـةـ الـغـایـاتـ، وـمـنـ ثـمـ فـإـنـ الـأـخـرـ قـدـ شـكـلـتـ عـقـبةـ لـاـ بـدـ مـنـ تـجاـوزـهـاـ مـنـ أـجـلـ قـيـامـ المـذـهـبـ الـمـادـيـ (47)ـ بـنـزـعـتـهـ الـأـلـيـةـ، وـتـلـخـصـ هـذـهـ الـاـنـتـقـادـاتـ فـيـ بـلـيـ:

1- لـاـ تـعـرـفـ الطـبـيـعـةـ غـایـةـ، إـنـماـ يـضـفـيـ الـإـنـسـانـ غـایـاتـهـ عـلـىـ الـظـواـهـرـ الطـبـيـعـيـةـ، لـقـدـ نـصـبـ نـفـسـهـ مـرـكـزاـ لـلـكـونـ، وـحـسـبـ أـنـ الـظـواـهـرـ جـيـعـاـ تـهـدـفـ إـلـىـ تـحـقـيقـ مـصـالـحـهـ وـأـهـدـافـهـ، فـتـصـوـرـ أـنـ جـرـيـانـ الـأـنـهـارـ وـسـقـوطـ الـأـمـطـارـ مـنـ أـجـلـ رـيـ زـرـعـهـ وـسـقـيـ حـيـوانـاتـهـ وـشـرـبـهـ هوـ.

لـقـدـ خـلـعـ تـصـورـاتـهـ عـلـىـ مـسـلـكـ الطـبـيـعـةـ فـتـصـورـهـ مـائـلـاـ لـلـعـلـمـ الـإـنـسـانـيـ، حـيـثـ كـلـ فـعـلـ لـهـ إـنـماـ يـهـدـفـ إـلـىـ غـایـةـ مـاـ، وـأـنـ الـغـایـاتـ هـيـ الـتـيـ تـحدـدـ السـبـلـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـيـهاـ.

2- وـحـينـ ثـارـ التـسـاؤـلـ: كـيـفـ تـوـجـدـ الـغـایـاتـ الـطـرـقـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـيـهاـ فـيـ عـالـمـ الطـبـيـعـةـ؟ـ اـضـطـرـ الـقـائـلـوـنـ بـالـغـایـاتـ إـلـىـ تـصـوـرـ قـوـةـ حـيـوـيـةـ فـيـ الـكـائـنـ الـحـيـ تـعـملـ عـلـىـ بـلـوغـ الـغـایـاتـ وـتـحـقـيقـ الـغـرـضـ سـوـاءـ أـكـانـ «ـحـفـظـ الذـاتـ»ـ أـمـ «ـحـفـظـ النـوعـ»ـ.

3- وـفـيـ مـذـهـبـ الـغـایـاتـ قـلـبـ لـتـرـتـيـبـ الـأـمـورــ أـوـ وـضـعـ لـلـعـرـبـةـ أـمـامـ الـحـصـانــ حـيـنـ يـبـدـأـ بـالـفـكـرـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـأـمـورــ ثـمـ يـرـتـبـ عـلـىـ ذـلـكـ أـوـاـئـلـهـاـ.

4- إـنـ الـغـایـاتـ تـعـيـ أنـ فـكـرـةـ الـمـسـتـقـبـلـ تـحـكـمـ فـيـ

(\*) منـ أـجـلـ دـعـمـ مـوـقـعـهـ يـدـعـيـ الـمـذـهـبـ الـمـادـيـ أـنـ الـمـتـحـدـثـ باـسـمـ «ـالـمـوـقـعـ الـعـلـمـيـ»ـ وـإـنـ الـاتـجـاهـاتـ الـمـارـضـةـ لـهـ غـيرـ عـلـمـيـةـ.

بـ- القول بالختمة أمر ضروري في العلوم  
البيولوجية

١- لا وجود لشيء اسمه القوة الحيوية في بنية الكائن الحي

ولا يكفي نقد فكرة الغاية من أجل التمهيد لمبدأ الحتمية، وإنما لا بد من تقويض الأساس الذي يستند إليه المذهب الحيوى، والذي يموجه يعد الفارق بين الكائن الحي والجسم الحامد فارقاً في الطبيعة لا في الدرجة، ذلك الأساس هو المبدأ الحيوى أو القوة الحيوية التي يقال إنها تسري في بنية الكائن الحي.

وكما أنه لا شيء في الفيزياء اسمه القوة المعدنية، فكذلك لا شيء في البيولوجيا اسمه القوة الحيوية، ذلك أن الطبيب أو الفسيولوجي لا يبحث عن «علة» الحياة أو عن «جوهر» المرض، إذ ليس لألفاظ «العلة» و«الجوهر» وما شابهها أية حقيقة موضوعية.

إن من الأطباء بصفة خاصة - من يخفيه أفحش  
الخطأ حين يعتبر أن للحياة تأثيراً خفياً خارقاً للطبيعة  
يتصرف متحرراً من كل حمية؛ إن القول بالذهب  
الحيوي خرافة طبية وذلك حين نؤمن بخوارق الطبيعة  
وبجعل خفية سواء سميت حيوية أو غير ذلك، إنه  
نوع من الدجل غير المعتمد<sup>(47)</sup>.

قد لا تحدث ظاهرة ما داخل الجسم رغم حدوثها خارج الجسم الحي، ولا يرجع هذا الاختلاف إلى وجود شيء اسمه «الحياة» يحول دون حدوث الظاهرة، وإنما يرجع إلى أن شرط حدوثها غير متوفّر داخل الجسم متوفّر في خارجه، لقد قيل مثلاً أن الحياة تختفي في القرنيين داخل الأوعية في الحيوان الحي في حين أن القرنيين يتختفي خارج الأوعية الدموية لأن الحياة لم تعد تؤثر فيه، ولكن الواقع خلاف ذلك، ذلك أنه لتختفي القرنيين شروط فيزيوكيميائية معينة، وهي أصعب تحقيقاً داخل الجسم الحي منها في خارجه، غير أنه من المحتتم وجودها داخل الجسم،

وفي هذه الحالة يختبر الفبرين داخل الجسم وخارجيه على السواء، فليست «الحياة» إذن إلا شرطاً طبيعياً يمكن أن يوجد أو لا يوجد<sup>(48)</sup>.

ذلك قد يزداد تكوين السكر في الكبد بعد الموت عنه أثناء الحياة، فكان أن استنتج بعض الفسيولوجيين خطأً أن للحياة تأثيراً في تكوين السكر في الكبد، وإنها تمنع تكوينه بينما يساعد الموت على ذلك، تلك آراء تنتهي إلى المذهب الحيوى، ومن العجيب أن نسمعها في عصرنا هذا، إن الأمر لا يعلو أن يكون شر وطاً طبيعية موجودة أو غير موجودة، وما عدا هذا فلا وجود لشيء حقيقي آخر<sup>(49)</sup>.

2- كل من الكائنات الحية والأجسام الجامدة  
خاضع للتحمية:

كل من الفيزيائي الذي يدرس ظواهر المواد الجامدة والفيسيولوجي الذي يدرس ظواهر المادة الحية ينشد غرضاً واحداً هو علة الظاهرة التي يدرسها من أجل السيطرة عليها والتنبؤ بظهورها ومسارها، إنه متى توفرت الشروط الالزامية لحدوث الظاهرة، فإنه يجب أن تحدث تبعاً لرغبة المجرب؛ إن إنكار ذلك هو إنكار للعلم نفسه، هذا مبدأ مطلق سواء في ظواهر الأجسام الجامدة أو الكائنات الحية، وليس للحياة من أثر في هذا الاختلاف. فإذاً أن تكون هناك حتمية في الظواهر البيولوجية وإما أن تكون هناك قوة عمياء لا ضوابط لها ولا قانون وهذا مستحيلاً<sup>(50)</sup>.

حقيقة أن الظواهر الحيوية تختلف من حيث مظاهرها ودرجة تعقدها عن الأجسام الجامدة، ولكن القوانين ثابتة سواء في الأجسام الحية أو الأجسام الجامدة، وهي في ذلك خاضعة تماماً للحتمية الضريبة المطلقة.

إنه ينبغي أن تكون الختمية في ظروف ظواهر  
الحياة من البديهيات التي يعرفها الطبيب الذي  
يحيط، فإن وقى من ذلك فإنه سيستبعد كل مقوله

عن مبدأ حيوي غير مرئي مفارق لما هو طبيعي.

وإذا بدأ المجرب من المبدأ القائل بأن ثمة قوانين ثابتة لا تتغير، فقد اقتنع بأن الظواهر لا تتعارض أبداً إذا ما لوحظت في نفس الظروف، فإن بدا تغير ما فذلك لنشأة ظروف أخرى تحجب تلك الظروف أو تعدهما، ومن ثم لا بد من الالهادء إلى ظروف التغييرات الجديدة لأنه لا معلول دون علة:

إن الختمية أساس كل تقدم علمي ، وكل قول بالاستثناء هو قول معارض للعلم منافق له، إننا نسمح فقط بالتعبير عن وجود أعراض أو ظواهر شرط حدوثها مجهلة، أما الإيمان بمبدأ حيوي يمنع حدوث ظاهرة ما فهو أمر غير جائز، إذ لم يعد ثمة استثناء لا في الطب ولا في غيره من العلوم، لقد كنا فيها مضى نقول: إن الجرب قد يُشفى أحياناً وقد لا يُشفى أحياناً أخرى، غير أننا اليوم نقول: إذا عرفنا العلة المحددة المحدثة له شفيناها حتى ودائماً<sup>(51)</sup>.

إن أية ظاهرة تبدو بنفس الصورة متى تشابهت الظروف والعوامل المؤدية إليها، ومن غير الممكن أن تختفي إذا توفرت نفس الظروف، كما أنها لا تظهر إذا لم تتوفر نفس الظروف أو اختفت بعض العوامل، ومن ثم فإنه إن اختلفت نتائج الأبحاث أو التحاليل فذلك يعني اختلاف الظروف، ومن ثم ينبغي القيام بسلسلة جديدة من الأبحاث أو التحاليل مع اتخاذ احتياطات جديدة، ذلك أن الحقائق العلمية لا تتعارض.

### 3 - دور المصادفة: لا تتعارض مع الختمية - لا تبرر إدعاء حدس أو حس طبي:

لو أن مريضاً بمرض مجہول قصد مستشفى أو عيادة طيب، فلا شك أن اكتشاف الطبيب لهذا المرض راجع إلى الصدفة، الواقع أن الممارسة الطبية في أغلب الحالات تقوم على المعرفة الافتافية.

ولكن ذلك أيضاً في سائر العلوم ، فعالن النبات قد يعثر في الريف على نبات كان يجهله ، والفلكي قد يرى صدفة في السماء كوكباً كان يجهل وجوده ، ولا بد أن تكون جميع المعارف الإنسانية قد بدأت بلاحظات اتفاقية ، فليس في وسع الإنسان أن يعرف الأشياء إلا بعد مشاهدتها ، وقد يكون قد شاهدتها لأول مرة بطريقة عرضية .

غير أن الإنسان لا يتخذ مما يشاهده إتفاقاً أو مصادفة مستنداً لاستدلالاته إلا بعد وصوله إلى عدد من الشواهد عن طريق الملاحظة ثم يكون رأيه عن الأشياء بعد أن يقارن بين الواقع القديمة ، ويستنتج منها وقائع جديدة مماثلة لها ، فالملاحظة الافتافية تؤدي إلى فحص وقائع أخرى ، هنا يتنهي دور الصدفة ليبدأ دور الاستقرار.

حسب الطبيب ألا يدع الصدفة تفلت منه بل أن يلاحظها بدقة ، ذلك أن الصدفة هي عادة نقطة البدء في التشخيص وفي علم العلاج ، بل أن آثار معظم الأدوية لم تلاحظ إلا عرضاً.

ولكن ذلك لا يعني إطلاقاً أن يدعى الطبيب أنه اهتدى إلى تشخيص مرض معين بنوع من الحدس الطبي ، وكثيراً ما سمعت أطباء يقولون هذا ، إن من يفكرون على هذا النحو إنما ينكرون العلم ، وأنه ينبغي محاربة هذه الآراء التي تخدم جذوة العلم وتعمل على تشجيع الجهل والدجل ، إنه لا يمكن الحكم على تأثير دواء ما في سير المرض ونهايته إلا إذا عرفنا من قبل السير الطبيعي لهذا المرض وما يتنهى إليه ، فضلاً عن أن التجربة المقارنة شرط ضروري جوهري في الطب التجاري العلمي ولولاها لتخطي الطبيب في سيره .

وكثيراً ما يفتخر الطبيب الذي اختبر علاجاً ما أو أوصى بدواء ما / اتفق أن شفى مرضاه / إذ يجد نفسه مدفوعاً إلى الاعتقاد بأن الشفاء راجع إلى علاجه أو

غير عضوية، اذ الحياة مادة هيبروكربونية.

4 - يعتبر الكربون مستودع طاقة كيميائية، ذلك أن جزيء الكربون الذي يحتوي على عشرين ذرة يمكنه أن يعطي مليون صورة مختلفة، فـ «ادة الأظافر ومادة الجلد والشعر والعظم والغضاريف والعضلات والأعصاب والدم والرمش وقشر البيض والأسماك وزلال البيض والهرمونات كلها تعقيدات ومشتقات من المادة البروتينية المكونة من الكربون والميدروجين والأوكسجين، وفي جزء البروتين خمسة آلاف ذرة».

5 - وكما أن ثانية وعشرين حرف هجاء تعطي امكانيات لا حدود لها من الكلمات فـ «ذلك جزيء البروتين، إلى حد أنه في جسم الإنسان مائة ألف نوع من البروتينات».

6 - الخلاصة: الفارق بين عالم الأحياء وعالم الجمادات إنما هو فارق بين مركبات عضوية وأخرى غير عضوية ومن ثم فإنه فارق في الدرجة لا في الطبيعة، والكون كله وحدة واحدة، الجهد في أدناه والانسان في أعلىه.

ومن ثم فإن جميع العمليات العليا للانسان كالذاكرة والتفكير ليست الا عمليات آلية، فجسم الانسان آلة حية، وجميع أعضائه تؤدي وظائفها - كما تؤدي الآلات عملها - وفقاً لقوانين الميكانيكا، فليس الذكرة الا وحدة تخزين المعلومات وتسجيلها، ولا يقتضي ذلك حيزاً مكانياً اذ أنها تعمل وفق نظام متعدد القنوات *multi - channel system*، وحين تستدعي أي معلومة من الذاكرة فـ «ان ذلك يتم وفق جهاز التنظيم الآلي لاستجابات الصحيحة، كذلك العقل الانساني - أو بالأحرى المخ - مجرد آلة حاسبة أو عقل الكتروني Computer ذي تنظيم آلي».<sup>(53)</sup>

دوائه، ولكن على الطبيب أن يقاوم في نفسه هذا الغرور متحللاً بالروح العلمية حتى يصبح أ-fit رأياً في تأويله للدلائل المختلفة للظاهرة المرضية، انه لينبغى أن يطرح الطبيب على نفسه السؤال: «لا يصح أن يكون الشفاء قد تم بسبب عامل آخر غير علاجه أو دوائه؟ كيف يتيسر لنا أن نعرف سبب الشفاء: أهذا الدواء أم الطبيعة؟»<sup>(54)</sup> اتنا قد نعرض أنفسنا في كل لحظة للوقوع في أوهام كثيرة اذا لم نلجم الى التجربة المقارنة، وسأكتفي بذلك مثل واحد حديث يتعلق بـ «التهاب الرئة»، فقد بينت التجربة المقارنة أن معالجة التهاب الرئة بالقصد ليست إلا معالجة وهيبة بعد أن كانت معتبرة من أ新颖 طرق العلاج<sup>(52)</sup>.

#### 4 - المذهب المادي ونزعته الآلية:

في مؤلفه «الفلسفة والطب» يشير ليدرمان إلى أن هناك فلسفتين للطب، أما الفلسفة الأولى فهي المذهب المادي الآلي حيث الاهتمام بالاجزاء، لأن الكل إنما هو محصلة هذه الأجزاء، وهذا هو مذهب الكثرة والتعدد، وأما الفلسفة الثانية فهي المذهب الكلي وقد سبقت الاشارة إليه بـ «تصديق النسق الفلسفى للطب القديم».

ويمكن حصر القضايا الأساسية للمذهب المادي على النحو التالي:

- 1 - الوجود مادي في طبيعته ولا شيء في الوجود غير المادة، فـ «ما ليس مادياً فهو غير موجود».
- 2 - ان أي مبحث علمي لا بد أن يلتزم بالتفسير المادي وإلا عد مبحثاً غبياً غير علمي اذ المادية مرادفة للتفكير العلمي.

- 3 - إن الفارق بين عالم الأحياء وعالم الجمادات هو فارق في التركيب الكيميائي بين مواد عضوية وأخرى

(\*) من الغريب أن يذكر كلود برنارد دور الطبيعة في الشفاء مع أن سياق حديثه بل كل دعوته قائمة على مبدأ الختمية وعلى انكار أي مبدأ غيبي في العلاج.

الحيوانات - أعني الإنسان - فغدا قادراً على ادراك المجردات والمعقولات بما له من ذاكرة وعقل.

هذا التدرج الصاعد بين الموجودات كان من المفروض أن يجاذبه ويوازيه مسار علم الانسان، ذلك أن المعرفة تطابق بين ما في الكون من نظام وما في العقل من نظام، والتطابق يقتضي التوافق، ولو لم يكونا متوفيقين لما أمكن الطابق بينهما ولما أمكن أن يقوم علم يقيني.

وقد كان يجب أن تكون المعرفة الانسانية مستقرة ثابتة ما دام النظام الكوني أزلياً ثابتاً مستقراً منظماً، ولكنها ظلت زمناً طويلاً قلقة مفككة لأنها بدأت من حيث المتهى، وذلك حين بدأ تاريخ العلم بالعلوم الانسانية ثم تبعتها علوم الحياة وانتهت بالعلم المادي، مع أن الترتيب الطبيعي للقوانين الكونية إنما يكون بالبدء بأسطحها وأعمها وأدناها وهي قوانين المادة ثم علوم الحياة وهي أكثر تركيباً ورقىً ثم بقوانين الانسان وهي أخص وأرقى وأشد تعقيداً.

هكذا بدأ النظام الكوني من أسفل إلى أعلى بينما بدأ نظام المعرفة من أعلى إلى أسفل فكان الاختلاف وكان الاضطراب.

تقوم الانسانيات على العلوم البيولوجية، وتقوم العلوم البيولوجية على العلوم الطبيعية، ذلك أن قوانين المادة ضرورية لتحديد أي القوانين البيولوجية يطابق الواقع، كما أن قوانين الحياة لازمة لتحديد أي قوانين انسانية يطابق الواقع<sup>(54)</sup>.

يقوم الاصلاح المنهجي اذن على تغيير وضع هذا الهرم المقلوب بأن يجعل المعرفة هرماً قائماً على أساس الطبيعيات لأنها أساس ثابت قائم على التجربة والبرهان ولأن قضائياها عامة غير قابلة للاستثناء، وفيها يكون الواقع والمعقول شيئاً واحداً لا يقبل الخلاف ولا يتحمل الشك، وعلى أساس علوم المادة تقام علوم الحياة ثم نقيم على هذا كله علوم

د. التدرج الوجودي الصاعد: تفاضل الموجودات

من الذرة أساس الوجود المادي إلى الإنسان قمة الموجودات «من منظور فلسفى»:

1- في «الأصل» - ولا نقول في البدء «كان هناك شيء واحد متناه في الصغر له خاصية واحدة هو القدرة على الاتحاد مع اشباهه فكان «البروتون» و«الإلكترون»، ذلك هو أدنى نظام في الوجود وأكثرها بساطة، وقد كان يخضع لقانون واحد هو قانون المغنتيسية الكهربائية.

2- تم الاتحاد بين الأشباء وغير الأشباء، بين الإلكترونات والبروتونات فكانت الذرة التي هي محصلة علم الذرة، فكانت هذه بداية العالم المادي.

3- استمرت قوة الاتحاد مع الأشباء غير الأشباء في الذرات فكان الجزيء الذي يحكم عالم الكيمياء. ونتيجة لقلق في تركيب الذرة كان الاشعاع في عالم الذرات.

4- واختصت ذرة الكربون بسبب راجع إلى طبيعة تركيبها بقدرها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحاداً واسع المدى فكانت الجزيئات المعقدة، وهذه بسبب تعقيدها قلقة التركيب مثلها مثل الذرات القلقة ذات الاشعاع، وباتحاد هذه الجزيئات مع غيرها خرج لنا مركب له صفات جديدة فكانت الحياة.

وعندما تحدث هذه المركبات القلقة قلقاً حيوياً كانت الخلية التي اكتسبت خصائص الحياة من المقاومة ومرنة وحركة وقدرة على التكيف، اذ يمكنها أن تتعدد مع غيرها دون أن تفقد ذاتيتها أو خصائصها الحيوية.

واتحاد الخلايا نوعان: تكاثري احتزالي في النبات وتوالدي تكميلي في الحيوان.

5- وبلغ التعقيد أشدده في خلايا مخ أحد

2 - التفسير العلمي النازل: تكامل المعرف: تفسير المركب بالبسيط: أ - التحليل والتشريح ب - الرد.

### أ - التحليل والتشريح :

يبدأ التحليل بالمعطى المشاهد باعتباره مركباً أو معقداً للانتقال به إلى العناصر المكونة له، ذلك أنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة الشيء دون تحليل، فمن طلب حقيقة شيء دون تحليل، كان - كما قال ديكارت - كمن يحاول الوصول إلى قمة برج عال من غير أن يصعد إليها بدرج.

والتحليل على أنواع حسب موضوعه - يهمنا منه نوعان: التحليل المادي أو الطبيعي والتحليل العقلي. أما التحليل المادي فواضح في تحليل المركبات الكيميائية إلى عناصرها كتحليل الماء إلى أوكسجين وايدروجين، وأما التحليل المنطقي أو العقلي فهو عزل صفات الشيء أو خواصه علاً تصوريًّا في الذهن بقصد ادراك العلاقة بين أجزائه، والتحليل بهذا المعنى منهج من مناهج البحث سواء في الفلسفة أو في العلم.

والتحليل المادي لا بد أن يسبقه تصور عقلي للتحليل، فما يجريه الكيميائي من تحليل مادي كان متضوراً في الذهن قبل أن يشرع في تحليله في الواقع. غير أن الكيميائي لا يهتم إلا بأشياء خارجية، بينما يتفاعل الكائن الحي مع بيئتين: خارجية وداخلية، ومن ثم احتاج الطبيب أو الفسيولوجي إلى معرفة مكونات البنية الداخلية فكان لا بد من التشريح.

ان لا قيام للطلب ولا للفسيولوجيا بدون تشريح، ذلك أن عمليات الحياة عاجزة عن ان تكشف عن نفسها فبين لنا كيف تعمل بدون مشاهدتها حال توقفها عن أداء وظائفها بالموت. فلكي نعرف كيف يحيا الإنسان لا بد من مشاهدة أعضائه الداخلية وهو

الإنسانيات متسقة في نظامها العام مع علوم الحياة، بذلك تبين المذهب الحق من بين المذاهب الإنسانية المتعددة<sup>(55)</sup>.

يفيد هذا النسق في تحديد ما هو أعلى وما هو أدنى وحيث قوانين ما هو أدنى تؤثر في الكائنات الأعلى، فلما كانت المادة الحية أسمى من الجماد فإن قوانين البيولوجيا لا تعمل إلا بعد تمام عمل القوانين الفيزيائية والكيميائية<sup>(56)</sup>

والكائن المركب من خلايا أرقى من الكائن ذي الخلية الواحدة، ذلك لأن قوانين التخصص العضوي لا توجد إلا بعد ازدياد التعقيد الناشئ عن تعدد الخلايا.

وما كان لقوانين العلوم الإنسانية أن تقوم إلا بعد أن يتم عمل قوانين الحيوانات وبلغها غاية التعقيد.

ان العقل من حيث هو جهاز للتفكير لا يؤثر في الحقائق الكونية، وإنما يحاذيها ومحاكها. ومن ثم ينبغي أن يكون أسلوب تفكيره متسقاً مع القوانين التي تحكم الكون متدرجة من البروتون إلى الإنسان، من الإلكترون إلى العقل، من المحسوس إلى المجرد، من نظام الذرة إلى سلوك الإنسان، حيث القاعدة العامة دائمةً، ما هو أدنى يؤثر فيها هو أعلى.

هذا نظام متسق قائم على أسبقية البسيط على المعقّد، ومن ثم فإن منهج المعرفة لا بد أن يتinct معه، فإن كان النسق الوجودي صاعداً فان النسق المعرفي لفهم الوجود لا بد أن يكون نازلاً برد ما هو أعلى إلى ما هو أدنى، والسبيل إلى ذلك وسيلتان:

الأولى: التحليل ويلحق به في الطبع التشريح حيث يتم تفكيك المركب إلى عناصره.

الثانية: الرد Reduction حيث ترد الظواهر المعقّدة في تفسيرها إلى العوامل الأبسط منها، فترت الظواهر البيولوجية إلى العوامل الفيزيائية والكيميائية.

الأوردة مثلاً وظائف آلية هي التي هدت هارفي إلى السبيل الذي سلكه لاكتشاف الدورة الدموية، إن القنوات في الجسم الحي مهمتها التوصيل، والخزانات مهمتها الاحتواء، والروافع مهمتها التحرير<sup>(59)</sup>. فضخ القلب للدم يخضع لنفس قوانين الميكانيكا التي تسرى على الروافع الآلية فليس للبنية الحية أية تلقائية تشد عن القوانيين التي تحكم الأجسام الجامدة، وإذا كانت الأعضاء الحية قابلة للتدهيج أو الانفعال كالانقباضات العضلية والتوصيل العصبي والأفراز الغدي فيما ذلك لا رد فعل على منبهات خارجية أو داخلية، فلا تظهر الأعضاء خواصها ولا تؤدي وظائفها إلا بقدرة تأثير العوامل أو المنبهات الخارجية أو الداخلية عليها.

هكذا ترد الكيمياء الحيوية المواد العضوية إلى غير عضوية كما ترد الميكانيكا الحيوية حركات أعضاء الكائن الحي إلى قوانين الميكانيكا، كما يرد علم النفس الفسيولوجي الظواهر النفسية إلى عوامل عضوية.

وفي علم الفيزياء الحيوية يمكن التوحيد بين التغيرات التي تحدث في خلايا الكائنات العضوية وبين العمليات الفيزيائية التي يتم فيها تبادل الألكترونات بين المجموعات المتجاورة من الذرات، ذلك التبادل الذي يتطلب طاقة، وبذلك يمكن تقنن وحدة الطاقة الحيوية كما تقنن وحدة الطاقة المادية إلى

يموت، فتشريع الحي أسلوب لا غنى عنه في الطب، إنه الأساس اللازم لكل البحوث الطبية نظرية كانت أم عملية<sup>(57)</sup>.

بل ان الأمر يتطلب أحياناً حقن الحيوانات بالسموم لمعروفة تأثيرها على كل من الدم والأنسجة، وما يطرأ عليها من تغير عقب الموت مباشرة<sup>(58)</sup>.

ومع أن المبدأ الأخلاقي الطبي يحظر اجراء تجارب على الإنسان إن كان ستضر به حتى لو كانت نتيجتهافائدة العلم، فإنه لا تقدم للعلم بغير تجارب.

ب - الرد:

يعذر رد الظواهر البيولوجية إلى عوامل فيزيكيمائية إلا أن سلمنا بأن الجسم الإنساني آلة حية، وإن بدت الكائنات الحية أشد تعقيداً من الأجسام الجامدة فما ذاك إلا لأن الأولى تخضع لمؤثرات بيئية خارجية وداخلية بينما تخضع الثانية للبيئة الخارجية وحدها، والبيئة العضوية الداخلية للكائن الحي تمكنه من مقاومة المؤثرات الخارجية فيحتفظ الكائن الحي بدرجة حرارته مستقلأً عن الطقس الخارجي على أن ذلك لا يصح أن يكون مبرراً لتصور قوة حيوية تسرى في الكائن الحي وتنظم وظائفه على نحو مغاير لما تقوم به الآلة، فذلك اثر من التصور المدرسي القديم، فليس الجسم الانساني إلا آلة تخضع لما يمكن تسميته بالميكانيكا الحيوية، ان لصيامات

(\*) يدافع كلود برنار عن مبدأ تشريح الحيوانات الحية واستخدامها في التجارب بقوله:

1 - انه لأمر غريب أن يباح للإنسان استخدام الحيوان في جميع منافع حياته وماكله ثم يحرم عليه استخدامه لزيادة معارفه في أكثر العلوم نفعاً للبشرية ص 106.

2 - انه لا قيام لعلوم الأحياء والفيزيولوجيا والطب دون تشريح الحيوانات.

3 - ان الضفادع تحتل المكان الأول بين جميع الحيوانات بقصد الخدمات التي أدتها للإنسان في مجال الفسيولوجيا والطب ص 12 . بل انه لتبرير اجراء التجارب على الإنسان الحي يقول: ان الفرق بين المجرم الوعد والبطل المحارب - وكلاهما قاتل - اثنا هو في البعض، فكذلك الأمر بقصد نفع البشرية وإنقاذ الأحياء من الموت بالتضحيه ببعضهم، ان هذا المبدأ الأخلاقي هو الذي يجعل الطبيب في المشرحة لا يشعر أنه في مقبرة مليئة بالجثث ص 107.

المحدين، وهي مقوله تنطوي على كثير من الواقع  
الصادقة، والواقع أن الإشارة إلى بعض إيجابيات  
الطب القديم التي غفل عنها الطب الحديث لا تعني  
بحال ما ترجح الأول على الثاني، وإنما تهدف المقارنة  
بين الأسس الفلسفية لكل من النسرين إلى تأكيد  
أمرين:

الأول: إن النزعة العلمية التجريبية في الطب  
الحديث لم تحرره من كل تصور فلسفى، لأن هذه  
النزعة المستندة إلى مقوله (ما ليس تجربياً فهو ليس  
علمياً) إنما هي بدورها اتجاه فلسفى تعارضه مذاهب  
فلسفية أخرى متكاملة معه.

الثاني: أن المقارنة بين الأسس الفلسفية لكل نسق  
من النسرين تكشف عن بعض السلبيات في المسيرة  
الطبية الحديثة دون أن تبهمنا انجزاتها انهاراً يغشى  
أبصارنا، لقد رسم في الأذهان حيناً من الدهر يتجاوز  
قرناً من الزمان أن كل نتائج الطب الحديث يقينية  
لأنها علمية تجريبية، ولقد مكنت لهذا الاعتقاد عدة  
تصورات أهمها:

التصور الأول: استناد الطب إلى مبدأ الختمية،  
يعنى أن علاجاً واحداً دواءً واحداً لمريضين بمرض  
واحد لا بد أن تلزم عنه نتيجة مماثلة.

وقد تبين أن في ذلك تجاهلاً للعوامل الفردية  
الذاتية حتى وإن كانت غير تجريبية ولا خاضعة  
للمقولات العلم كالحالة النفسية أو الروح المعنوية لكل  
منها مما قد يؤدي إلى شفاء أحدهما وموت الآخر<sup>(\*)</sup>.

التصور الثاني: أن الأنماط المغايرة للطب التجريبى  
الحديث غبية خرافية أو هي على الأقل غير خاضعة  
للتجريب ولا لمقولات العلم، ومن ثم فإنه لا يصح  
السلاح لها بالعمل في الساحة العلاجية، الأمر الذي

وحدة فولت الالكترون، بذلك يمكن تطبيق مبدأ  
الطاقة في مجال الطب باعتبار المرض حاجزاً يحول دون  
انسياب الطاقة وبالتالي يمنع تبادل الطاقة بين الخلايا،  
ومن ثم فإن العلاج ينبغي أن يقوم على إزاحة أو  
استبعاد مثل هذا الحاجز أو العائق<sup>(60)</sup>.

هكذا تشكلت مكونات النسق الطبي الحديث:  
. المذهب المادي بنزعته الآلية وما يلزم عنها من  
ختمية.  
. تفاضل الموجودات كأساس للوجود.  
. رد ما هو أعلى إلى ما هو أدنى كأساس للمعرفة  
وما يلزم عن ذلك من مناهج:  
التحليل والتشريح - منهج الرد.

## خاتمة

- ١ -

لا وجه للمفاضلة بين الطب الحديث، ذلك أن  
الأخير من أهم إنجازات عصر العلم، وكيف يمكن  
المفاضلة بين طب كان يستند إلى خبرة ساذجة وبين  
طب يستند إلى تقنية متقدمة ويعتمد على علوم تجريبية  
كالتشريح والفيزيولوجيا وعلم الأنسجة وغيرها مما لم  
يكن الأقدمون يعرفون من أمرها إلا الشيء الضئيل.

لقد نجح الطب الحديث في استصال أوبيثة  
وأمراض كانت مزمنة ومتقطنة حتى في أرقى  
الحضارات القديمة، فضلاً عن انخفاض معدل وفيات  
الأطفال إلى أدنى مستوى وارتفاع متوسط عمر  
الإنسان وذلك من معايير التحضر بين الأمم.

هذه مقوله الكثرين حتى من غير الأطباء

(\*) وقد اعترف كلود برنار بذلك مشيراً إشارة عابرة إلى أثر التدين في الشفاء وإن كان قد عاد فأنكر على الطبيب أن تكون موضع اعتباره بدعوى أن مثل هذه العوامل لا تصلح للدراسة العلمية (المدخل إلى دراسة الطب التجريبى ص 217).

«مارسة» أو أنه «فن» أو «صناعة» حسب تعريف القدامي - على القول بأن الطب «علم» أو أنه مثال لسائر العلوم التجريبية التي تنتهي بصياغة قوانين علمية.

الثاني: سقوط دعوى الطب التجريبي الحديث بانفراطه بالصلاحيَّة للعلاج دون سائر الأنماط الطبية، ومن ثم استشارة الساحة العلاجية ما دام في هذه الأنماط ما يصلح للعلاج ويؤدي إلى الشفاء.

- 2 -

نعود إلى الممارسات الطبية الحديثة فنشير إلى أسسها الفلسفية التي أدت إلى بعض عثراتها في مسيرتها مما يتضمن الحاجة إلى إعادة النظر في هذه الأسس، ونعرض الأمر بطرح بعض التساؤلات حولها:

1 - هل الكل مجده مجموع أجزاء؟: إنه لا سبيل إلى إنكار أن ما توصل إليه الطب الحديث من معرفة دقيقة بكل عضو من الأعضاء وما تعيشه من عمل وأمراض إلما يرجع إلى التخصص الدقيق في كل فرع من فروع الطب، وأنه ما كان يمكن أن يحرز الطب ما أحرزه من تقدم لو ظلت الحال على النظرة الكلية التي كانت سائدة في الطب القديم، ذلك أن التخصص هو بلا شك إحدى سمات الفكر الحديث في شتى مجالاته.

ولكن السؤال هو: هل الإنسان هو مجموع أعضاء؟ لا تؤدي التجزئة الالزمة عن التخصص إلى تعذر معرفة الإنسان ككائن عضوي متكامل؟ يقول الكسيس كارليل: إنه من المستحيل أن يفهم العالم المتخصص تخصصاً دقيقاً في فرع الإنسان ككل، ما دام غارقاً إلى أذنيه في دراساته التخصصية... إن

أدى إلى استئثار الطب الغربي بالتشخيص والعلاج<sup>(\*)</sup>.

ولكن ماذا وقد تبين صلاحية بعض هذه الأنماط التي ينكرها ويستكرها الطب الغربي، فلقد اعترفت منظمة الصحة العالمية مؤخراً بالطب الصيني وصلاحيته لعلاج أكثر من ثلاثة مرضىًّا فضلاً عن دوره الهام في التخدير.

التصور الثالث: الطب «علم» مثله في ذلك مثل سائر العلوم التجريبية كالكيمياء والبيولوجيا والفيزيولوجيا وغيرها من العلوم الطيبة المساعدة.

والملعون عن هذه العلوم أنها «تراكمية» accumulative بمعنى أن أحدث القوانين أو النتائج فيها يلغى سالفتها ويبطلها، ذلك أن معيار الصدق في هذه العلوم هو اتساق قوانينها مع كل من النظام الكوني والنظام العقلي، اتساقها مع ما في الكون من نظام بالتطابق معه - وذلك هو معيار الصدق في كل ما هو تجريبي أو واقعي، واتساق نظرياتها مع ما في العقل من استنباط بالتوافق معه، وذلك هو معيار الصحة في كل ما هو فرضي استنباطي، فلما غدت هذه العلوم في نتائجها أشد اتساقاً وأكثر توافقاً وتطابقاً من سوالفها فقد نسخ حديثها قديمها.

ولكن الأمر في الطب مختلف، ذلك أن معيار الصدق فيه هو المبدأ «البرجاعي» أو العملي الذي يقرن الحقيقة بالصلاحية العملية، فالعلاج سليم لأنَّه صالح أو غير صالح It is true because it is useful أو هذا العلاج صالح فهو سليم أو حق It is useful therefore it is true يترتب على اختلاف معيار الحقيقة بين الطب وسائر العلوم التجريبية أمران.

الأول: ترجيح القول بأن الطب «مهنة» أو

(\*) ومع أن الطب الحديث من إنجازات الحضارة الغربية التي تسودها الروح الديمقراطية فإنها بصدده قد شابت الأنظمة الشمولية في التسلط والاعتقاد بالصلاحية المطلقة لها وحدها دون غيرها.

يقول الكسيس كارليل : ازدادت الموهبة بين الكم والكيف اتساعاً منذ أن أوجد ديكارت الثنائيه بين الجسم والنفس ، إذ أهللت الظواهر النفسية وتركز الاهتمام بكل ما هو عضوي آلي فسيولوجي بأكثرب من الاهتمام بالفكر والجسم ، لقد دفعت الحضارة الأوروبيه ثمن ذلك : انتصار العلم وانحلال الانسان<sup>(62)</sup>.

لقد بقي الدور المقابل - وهو أثر النفس في الجسم - غائباً عن الساحة الطبية رداً طويلاً من الزمان إلى أن كشف طابع الحياة في المجتمعات الصناعية عن هذا الفراغ ، ذلك أن حدة التناقض والتطلغ إلى الرثاء الفاحش قد أفرزا أمراضًا نفسية حادة انعكست بدورها على الجوانب العضوية ، يقول الكسيس كاريل : أهلل الأطباء والفيزيولوجيون العقل إهمالاً تاماً مع أنه منظم الكون مجرد أنه غير خاضع للتحليل الكيميائي<sup>(63)</sup> ، إن الأمراض العقلية أكثر انتشاراً من الأمراض الجسدية وإن شخصاً من كل 22 شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله إحدى مستشفيات الأمراض العقلية بين الجنسين<sup>(64)</sup> ، إن مشكلة الصحة العقلية من أهم المشكلات التي يواجهها المجتمع العصري ، وإن الأمراض العقلية أكثر خطورة من أمراض القلب والسرطان بل الطاعون والكوليرا ، إن الضعف العقلي والجنون هما الشمن الذي تدفعه المدينة الصناعية مقابل التغيرات التي طرأت على وسائلنا في الحياة<sup>(65)</sup>.

وحيث عجز الطب الجسمي عن مواجهة أمراض جسمية أثارتها انفعالات نفسية سواء بانتكاس الحالات المرضية دون مرور عضوي حيناً أو بالعجز عن الشفاء منها حيناً آخر ، وذلك لأمراض القلب والضغط والسكر والقرحة المعدية والمعوية والربو وغيرها ، تخلى الطب عن مقولته الفلسفية السابقة

الافراط في تخصص الأطباء قد سبب ضرراً كثيراً لأن الطب قد قسم المريض إلى أجزاء صغيرة لكل جزء منه أخصائي ، وكلما ازداد الأخصائي تعمقاً في تخصصه ازدادت خطورته نظراً لجهله بغير مجال تخصصه ، ثم يذكر مثالاً لذلك العالم «بكالت» في البكتريولوجيا الذي استخدم تخصصه ليحول دون انتشار مرض السل بين الشعب الفرنسي بواسطة المصل الذي اكتشفه ، ولكنه لم يكن ملماً بالصحة العامة ولا بأحوال المسكن والمأكل ولا بظروف العمل ولا بأسلوب معيشة الناس<sup>(66)</sup>.

على أن ثمة ما يشير إلى إدراك الطب المعاصر لهذه السلبية ، فلجلات المستشفى المتقدمة إلى إجراءفحوص طبية شاملة وليس مقصورة على عضو أو تخصص معين تحدد شوكوى المريض ، مدركة الترابط العضوى والأثر المتبادل بين جميع أعضاء الجسم.

هذا ويمكن أن يسمى «العقل الالكتروني» في ذلك حيث تصبح جميع المعلومات الباثولوجية في مختلف التخصصات تحت نظر الفريق الطبي المعالج .

## 2 - الجسم والنفس جوهران متبايزان ؟

مقوله أطلقها ديكارت ، ومع أنها من أكثر جوانب فلسنته ضعفاً ، إذ كيف يمكن أن يبقى الجسم والنفس متجاورين كأنهما كائنان غريبان في ذات واحدة وكيان واحد ، فإنها قد تركت أثراً بالغاً على الطب ، حتى غداً لفظ الطب البشري مرادفاً للطب الجسدي دون اعتبار للنفس ، وقد أعادت على ذلك سيطرة المذهب المادي على التفكير العلمي من جهة وتقدم علوم مساعدة للطب وثيقة الصلة بالجسم ولا شأن لها بالنفس ، وأن أشير إلى النفس باعتبار أنها من طبيعة جسمية أو أن الجسم هو الذي يؤثر على النفس ، وقد عمل علم النفس الفسيولوجي على تعزيز هذا التصور.

(\*) قارن هذا الموقف باتجاه الطب القديم حيث الوعي التام بأهمية البيئة الجغرافية والظروف الاجتماعية.

إن الارتباط الوثيق بين المذهب المادي في الفلسفة من جهة وبين الاتجاهات العلمية في القرن التاسع عشر أدى إلى إنكار القوة الحيوية واعتبارها من مخلفات غيبيات الطب القديم، وإنها عقبة في سبيل تقدم الطب التجربى العلمي، يقول كلود برنارد: إنه القول بقوة حيوية في الكائنات العضوية يجعلها تختلف عن الجمادات يؤدى إلى انكار وجود الحتمية في ظواهر الحياة ومن ثم إنكار البيولوجيا كعلم<sup>(68)</sup>، إن علم ظواهر الحياة لا يمكن أن يقوم على غير أسس علم ظواهر الأجسام الجامدة، وليس ثمة فارق بين العلوم البيولوجية والعلوم الفيزيوكيميائية، إن الكائن الحي ليس إلا آلية تتحرك وفقاً لأكثر الأنظمة الآلية تعقيداً وأكثراً دقة، فليس ثمة «حيوية». في أي ظاهرة حيوية، وليس في القول بالحياة والموت والصحة والمرض أية حقيقة موضوعية<sup>(69)</sup>!، وينطلي الأطباء حين يظنون أن للحياة تأثيراً خفياً خارقاً للطبيعة متحرراً من كل حتمية، إن آراء المذهب الحيوى ليست إلا لوناً من الخرافات الطبية لأنه إيمان بعidea خارق للطبيعة أو بعلم «الذى» يعسر تحديده<sup>(70)</sup>.

هذه آراء تجاوزها الطب المعاصر الذي عاد إلى تأكيد المقوله بالفارق في الطبيعة لا في الدرجة بين الكائنات الحية والأجسام الجامدة.

يقول ليدرمان: إن الكائنات الحية لديها ميل ملحوظ إلى تأكيد ذواتها باعتبار كل منها «كلا» whole أو وحدة عضوية وذلك بواسطة عمليات متتظمة في حين أن الكائنات غير الحية ينقصها هذا الميل، أن القوانين الفيزيوكيميائية قاصرة عن تفسير جميع الوظائف البيولوجية، ذلك أن الكائن العضوي لديه القدرة على التنظيم الذائي homeostatis ومن ثم يهدف العلاج إلى إعادة التوازن كأن تسعى الطاقة الذاتية إلى الت sham المجرور أو التعويض عن الوظائف

القائمة على تجاهل أثر النفس في الجسم، فكان أن نشأ الطب النفسي الجسمي ليعرض هذا القصور ولتعتدل الأمور بتبني مقوله الأثر المتبادل بين النفس والجسم لوجود وحدة عضوية بينهما.

بل إن الأمر قد ذهب إلى أبعد من هذا بإدراك أهمية الروح المعنوية ودورها في الشفاء وأثر الدين في ذلك، يقول الكسيس كارليل: في جميع البلدان والأزمان آمن الناس بالشفاء من المرض في أماكن مقدسة، غير أن تيار العلم في القرن التاسع عشر جعل هذا الاعيان يختفي اختفاء تماماً لأنه في نظر العلم مستحيل الحدوث، غير أن الملاحظات خلال الخمسين سنة الأخيرة أضفت الإصرار على هذا الموقف. إنه في خلال فترة وجيزة تلتئم الجروح بأسرع من المعدل المقرر لها وتختفي الأعراض الباثولوجية ويسترد المريض عافيته، هذه الظواهر تدل على الأهمية البالغة للنشاط الروحي الذي أهمل الأطباء أمره اهتمالاً<sup>(66)</sup>

والامر في الأمراض النفسية أشد وضوحاً، فقد ذهب كارل يونج إلى أن أكثر من نصف مرضاه كان الدين عاملًا مؤثراً في شفائهم<sup>(67)</sup>.

هكذا تبني الطب المعاصر مقولات فلسفية كانت تشكل طابع الطب القديم وتتلخص فيما يلي:  
1 - الصلة العضوية بين النهر والجسم.

- 2 - الطب الايكولوجي بالاعتراف بأثر البيئة الطبيعية والاجتماعية على صحة الانسان.
- 3 - الاعتراف بأثر الجانب المعنوي مثلاً في الدين ودوره في الشفاء.

3 - هل الجسم آلة حية؟

أ - ليس من دور حيوى للحياة في الأحياء؟

ب - هل يتجانس الأحياء تجانس الجمادات فلا ثر  
للتفرد أو الذاتية بين أفرادهم أو ذواتهم؟

الشرق لمراكيز طبية للعودة إلى دراسة تراثها الشعبي في العلاج والافادة منه<sup>(72)</sup>.

ولا يفسر استناد الأقدمين في العلاج بعقائده حيوانية أو نباتية دون المركبات الكيميائية بعجزهم عن تصنيع هذه المركبات بجهلهم بعلم الكيمياء، إذ الحاجة أم الاختراع ولو أنهما احتاجوا لهذه المركبات لاكتشفوها، وإنما يفسر الأمر بتصورهم الفلسفى بدور الدواء في الشفاء، إنه ما أن يشعر العضو العليل بالدواء حتى تختفي القوة الحيوية في الجسم جذباً وفقاً للمبدأ الفلسفى «الشبيه يجذب الشبيه» ليستعين بالقدرة الفاعلة في الدواء على دفع العلة، ومن ثم كان لا بد أن يكون الدواء من مكونات حيوانية أو نباتية مماثلة لما يتغذى عليه الإنسان، فليس من مبرر لدفهم لتجاويف ما هو حيواني أو نباتي إلى عالم الجناد.

المقوله الفلسفية التي جددت العلاج لدى الأقدمين إذن هي «الشبيه يجذب الشبيه» تماماً كما أن المقوله الفلسفية التي أدىت بالمحاذين إلى الاعتماد على المركبات الكيميائية في الدواء هي: الجسم الانسان آلة حية.

- ب -

القاعدة العامة في جميع العلوم التجريبية إنه متى توفرت شروط حدوث ظاهرة ما فإنه يجب أن تحدث، هذا مبدأ مطلق في جميع الظواهر لا تشد في الظواهر البيولوجية عن غيرها، فليس ثمة استثناء لا في الطب ولا في غيره من العلوم<sup>(73)</sup>.

يتربى على هذه القاعدة أمران:

الأول: إنكار آية تلقائية راجعة إلى قوة «الحياة» في الكائنات الحية.

الثانى: استبعاد أي «تفرد» أو «خصوصية» لأى فرد أو شخص من الناحية البيولوجية بدعوى أن الاستثناء مناقض للعلم نفسه.

التي توقفت بعض الأعضاء عن أدائها وذلك بواسطة أعضاء أخرى كان تقوم إحدى الكليتين بوظيفة الكليتين معاً لو أصبت إحداهما أو توقفت عن العمل.

إن التنظيم الذاتي يتم في عملية الهدم والبناء حيث كشف علماء الفسيولوجيا إنه يتم تنظيمها بواسطة الهرمونات والأنزيمات التي تعمل وفقاً لمبدأ «إيقاف التغذية المرتبطة» Feed - back inhibition يعنى أن إنتاج عنصر معين يتم وقفه حينما يتجمع هذا العنصر ويترأكم في خلايا معينة.

وكيف يمكن تفسير «المحاصنة» ضد ما يؤذى الجسم دون التسليم بمبدأ غائي حيث يحمى الكائن العضوي نفسه من خلال تكوين الأجسام المضادة - anti bodies التي تلتقي بالعناصر الغريبة الدخيلة على الجسم كالجراثيم ومن ثم تبطل مفعولها أو تأثيرها<sup>(74)</sup>.

ومن ناحية أخرى فإن القول بأنه ليس ثمة فارق بين العلوم البيولوجية والعلوم الفيزيوكيميائية إن كان قد أدى إلى تفسير الوظائف البيولوجية بعوامل فيزيولوجيكيميائية فإن ذلك قد انعكس على منهج العلاج فأصبحت صناعة الأدوية مركبات كيميائية غير عضوية، وأهملت الأدوية النباتية إلى حد أن لم تهتم معظم الدول المنتجة بتدوين دساتير دوائية لها.

ثم تبين أن معظم المركبات الكيميائية تأثيرات جانبية سلبية، بل إن بعضها أضراراً سامة، فكان أن تحول الاتجاه شيئاً إلى استخدام النباتات الطبيعية علاجياً وواقياً وباعتبارها خالية من السمية والضرر، وسعت الدول الغربية إلى الحصول على النباتات الطبيعية من جميع أنحاء العالم وبخاصة من دول العالم الثالث التي تعد أهم مصادر الأدوية النباتية، بل أن الأمر قد تجاوز مجرد استيراد هذه الأعشاب إلى الاستفادة من الخبرة غير المنظمة للطب الشعبي فيما عرف بعلم الأنثروبولوجيا الطبية، فضلاً عن إقامة بعض دول

آخرى لقد صحق الطب المعاصر مقولات القرن التاسع عشر التي كانت قائمة على المادية والتجانس.  
4 - وأخيراً وليس آخرأ: هل مهمة الطب أن يعارض عمل الطبيعة؟

تشكل عبارة ديكارت<sup>(\*)</sup> منعطفاً خطيراً في صلة الإنسان بالطبيعة، فبعد أن كانت هذه الصلة قائمة على المودة والمحبة والاقتداء بالطبيعة ومحاكاتها فقد غدت مستندة إلى السيطرة والتملك تخدوه في ذلك نظرة استبعاد واستعمار منذ عصر الكشف الجغرافية.

ولا يتعلق الأمر بالطبيعة الخارجية أو الكون فحسب بل تجاوز ذلك إلى التدخل في طبيعته الداخلية وأداء أعضائه الباطنية لوظائفها البيولوجية لا من أجل التخلص من علة فيها بل بالتعديل فيها حيناً وبإيقاف عملها أحياناً، فباسم التجميل وتزيين الخلقة الظاهرة عدل فيها دون مبرر أحياناً، ولأسباب اجتماعية واقتصادية عمل على تنظيم نسله بالحيلولة دون الإنخضاب على نحو معارض لأداء الطبيعة وذلك للتحكم في الخلقة الباطنية.

وفي تدخل الإنسان - الذي يحدو الغرور والظن بأنه قد أضحي قادراً على كل شيء قد تجاهل أمرين: الأول: تجاهل متعالياً تحذير الحكماء الأقدمين: (إن العمل على ترويض الطبيعة لن يجلب على الانسان إلا البؤس والشقاء) فذلك في نظره قول قد عفا عليه الزمن.

الثاني: تجاهل متعصباً للعلم التجريبي نور العقل فاستغنى عن الفلسفة ظاناً إن التجريب وحده يكفيه مرشدأ له في مغامراته، وإذا لم يكن للعقل - هبة الله للإنسان - دور في المسيرة التجريبية، فإنه من منظور علمي بحث وقع الإنسان في خطأ جسيم حين أغفل

حقيقة إنه لا مناص من التعميم لقيام العلم، غير أن فهمنا الدقيق للإنسان يقتضي أن نعرف الجانب الخصوصي لدى كل فرد، هذه الخصوصية التي جعلت من الإنسان كائناً فريداً في مملكة الحيوان، إن الأفراد لا يتميزون فقط عن بعضهم البعض بلامع وجودهم أو بصفات أصابعهم أو بأنماط شخصياتهم وإنما حتى في بعض الحيوانات البيولوجية<sup>(74)</sup>.

لقد رُفع مثلاً سطح جلد محترق بجلد أخذ بعضه من المريض نفسه والبعض الآخر من جلد شخص آخر؛ فللحظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذي أخذ من المريض نفسه قد تماسك والتأم وبدأ في النمو بينما الذي أخذ من أشخاص آخرين أخذ في الانفراش والانكماش، وسرعان ما عاش الأول ومات الثاني.

إن القاعدة إن أنسجة أي شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر، إنه كما يتفاعل كل شخص بطريقته الخاصة مع المؤثرات الاجتماعية كذلك يتفاوتون في تأثيرهم بالعوامل البيئية، فحينما ينتشروباء فإن بعضهم يمرض ويموت، وبعضهم يمرض ويشفي، وفريق ثالث يبقى محفزاً دون أن نعرف لذلك تفسيراً<sup>(75)</sup>.

إن هذا الاختلاف بين التجانس والتفرد أو بين التعميم والتخصيص له نظير في مجال الدراسات الفلسفية حول الماهية والوجود، إن القول بسبق الماهية على الوجود إنما يعني القول بالتجانس والتعميم بينما القول بسبق الوجود على الماهية - حسبما يذهب إلى ذلك الوجوديون إنما يعني بسبق الوجود على الماهية.

بذلك يتضح التوازي بين الفلسفة والطب. حتى حيثما يتعذر تلمس الأثر المتبادل بينهما، ومن ناحية

(\*) إن غرضه هو وضع فلسفة عملية في مكان الفلسفة القدية بحيث يجعل من أنفسنا سادة مسيطرین على الطبيعة مالکین لها (مقال في الموج القسم السادس).

لن يهدى الطب سواء السبيل مجرد استناده إلى التجريب، وإنما ستظل الفلسفة دوماً شمعة تضيء له طريق المسيرة الطبية المحفوفة بكثير من المخاطر بل الكوارث بعد أن انساق الإنسان إلى دعوى: ترويض الطبيعة ومعارضة سنتها وقوانينها الكونية. وأخيراً: إن قدر هذه المقالة أن تسهم في الكشف عن الدور الذي يمكن أن تؤديه الفلسفة - باعتبارها ممثلة للعقل هبة الله للإنسان - وأن «التجريب» في عصر العلم لن يعني عنها فذلك هو هدفي من تحريرها.

تماماً الفارق الكبير في العمر بينه وبين حيوانات التجارب التي لا تكشف بعمرها القصير عن الآثار الضارة للعقاقير المستخدمة في المدى البعيد، وقد كان يمكن للإنسان - بقليل من النظر الفلسفـي - أن يتبنـأ بأن معاكسة عمل الطبيعة والتشويش على مكونات الخلية وسائلها النوويـيـ في أداء الوظائف البيـولوجـية - كما فطرها الله عليه - يمكن أن ينجم عنهـ في المدى البعـيد خللـ في أدائـها وفي انقسامـاتها مثلاًـ في أمراضـ سـرطانيةـ اـحـتـاجـاًـ منـ الطـبـ عـلـىـ عـبـثـ الإـنـسـانـ . والبشرية مقبلة بعد ذلك على استخدامـاتـ للهـندـسـةـ الـورـاثـيـةـ عـلـىـ نـطـاقـ وـاسـعـ ، مـرـةـ أـخـرىـ أـقوـلـ :

## الحواشي

- (1) كلود برتران، ترجمة الدكتور يوسف مراد وحد الله سلطان: مدخل إلى دراسة الطب التجربـيـ ص 232.
- (2) المرجـعـ السـابـقـ ص 238.
- (3) د. علي الشـارـوـدـ . أحدـ صـبحـيـ: نـشـأـةـ الفـكـرـ الـفـلـسـفـيـ عـنـ الـيـونـانـ ص 155.
- (4) ابنـ النـفـسـ وـتـحـقـيقـ دـ . مـاهـرـ عـبـدـ الـقـادـرـ وـدـ . يـوسـفـ زـيـدانـ: شـرـحـ فـصـولـ أـبـقـاطـ ص 171.
- (5) مجلة عالم الفكر عام 1973 من ص 929-917، ص 285 - ص 297.
- (6) مقال المذهب الحيوي vitalism بالموسوعة الفلسفـية Encyc. of philosophy وكذلك مقال Organismic biology في البيـولوجـياـ العـضـوـيـةـ لـمـورـتنـ نـجـزـ فيـ نفسـ المـوسـوعـةـ .
- (7) J.R Worsley: Everyone's guide to Acupuncture p. 14.
- (8) Thornthwaite: A history of magic and experimental science in the 14 th & 15 th centuries - New York 1934 Vol. IV p. 190.
- (9) لويس عوض: المسرح العالمي، من التيملوس الى آدثر ميل ص 30 وما بعد.
- (10) جورج سارتون وترجمة محمد بدراـنـ: تاريخـ العـلـمـ ج 2 ص 239. ويشيرـ سـارـتوـنـ إـلـىـ ضـرـورةـ إـحـيـاءـ رـوـحـ الطـبـ الـابـقـاطـيـ بالـنـظـرـ إلىـ المـريـضـ كـكـلـ ، فـبـرـغـ تـقـدـمـ الطـبـ الـحـدـيـثـ فـإـنـ فـيـ أـقـوـالـ أـبـقـاطـ مـاـ لـيـعـلـىـ عـلـيـهـ .
- (11) مقال عن: العـلـاجـ بـالـبـلـرـ الصـسـيـنـيـ ، مجلـةـ الـكـوـيـتـ مـارـسـ 1989.
- (12) ليـدرـمانـ عـرـضـ الدـكـتـورـ عـزـمـيـ اـسـلـامـ: مجلـةـ عـالـمـ الـفـكـرـ ص 290. ويـشـيرـ ليـدرـمانـ إـلـىـ أـنـهـ وـفـقاـ لـلـطـبـ الـحـدـيـثـ فـانـ عـلـاجـ هـذـاـ المـرـضـ هـوـ عـلـاجـ لـلـأـعـرـاضـ وـإـنـهـ لـاـ يـوـجـدـ عـقـارـ شـافـ لـلـقـرـحةـ الـعـدـيـدـ فـالـأـدـوـيـةـ ، أـمـاـ أـنـ تـقـلـلـ مـنـ الـأـفـرـازـاتـ أـوـ التـحـكـمـ فـيـهـاـ أـوـ تـقـلـلـ مـنـ حـرـكةـ الـمـعـدـةـ أـوـ تـزـدـيـدـ إـلـىـ التـعـادـلـ مـعـ الـحـامـضـ الـعـدـيـدـ .
- (13) دـ . حـمـودـ فـهـمـيـ زـيـدانـ: منـاهـجـ الـبـحـثـ الـفـلـسـفـيـ الفـصـلـ الـخـاصـ عـنـ اـرـسـطـوـ وـمـبـداـ الـغـائـيـةـ .
- (14) أبوـ حـيـانـ التـوحـيدـيـ: الـأـمـاتـعـ وـالـمـؤـانـسـ ج 1 ص 159.

- (15) المراجع السابق ج 2 ص 69 .  
 كانت: فكرة التاريخ العام من وجهة نظر عالمية ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي ضمن كتابه النقد التاريخي .
- (16) Worsley: Everyone's guide to Acupuncture p.15  
 (17) L J.R. Harris: The Legacy of Egypt p.1150: As Sigerist has observed, You can cure or improve a great many internal diseases with incantations, that is, with religious or magic means, you can place the patient in a frame of mind that will activate the natural healing forces of the organism.
- (18) د. يوسف مراد: مقدمة تحقيق لكتاب الفراسة لفخر الدين الرازي .  
 (19) د. أحمد صبحي : في فلسفة التاريخ ص 330 مقالة عن بين منبع المؤرخين ومنبع المحدثين .  
 (20) د. يوسف مراد وترجمة د. مراد وهبة: علم الفراسة ص 34 .  
 (21) د. يوسف مراد وترجمة د. مراد وهبة: مقدمة كتاب الفراسة لفخر الدين الرازي .  
 (22) جون ولسن وترجمة الدكتور أحمد فخرى: الحضارة المصرية ص 113 .  
 (23) J.R. Worsky: Everyone's guide to acupuncture p. 21.  
 (24) د. يوسف مراد: مقدمة كتاب الفراسة .  
 (25) د. يوسف مراد وترجمة د. مراد وهبة: الفراسة ص 35 .  
 (26) كلود برنار، ترجمة الدكتور يوسف مراد وحمد الله سلطان: مدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 227-222 .  
 (27) برجسون وترجمة الدكتور محمد علي أبو ريان: المدخل إلى الميتافيزيقيا ملحق بكتاب المترجم «الفلسفة ومباحثها» .  
 (28) جورج سارتون: الترجمة العربية: تاريخ العلم ج 2 ص 239 وأيضاً أحد شوكت الشطى في مؤشر الطب الاسلامي (ابن سينا وأثر طب في العالم ص 19).  
 (29) ابن النفيس وتحقيق الدكتورين ماهر عبد القادر ويوسف زيدان: شرح فصول أبقراءات ص 91 وما بعدها .  
 (30) المراجع السابق ص 96 وما بعدها .  
 (31) لاونسي وترجمة الدكتور عبد الغفار مكاوي: الطريق والفضيلة ص 6 .  
 (32) المراجع السابق نفس الصفحة .  
 (33) St. Elmo Nauman, Dictionary of Asian Philosophies p. 78.  
 (34) Ibid. 80.  
 (35) ديكارت وترجمة محمود الخضيري: مقال في المنبع قسم 6 ص 69 .  
 (36) مصطفى غالب: أبقراءات ص 142 .  
 (37) عد جورج سارتون ادراك أبقراءات لأثر البيئة على صحة الإنسان بأنه مؤسس علم الطب الايكولوجي (تاريخ العلم: ص 230 ج 2) .  
 غير أنه غداً لهذا الدور الجارف لأثر الطبيعة على الإنسان انعكاساً سليماً على طبيعة المعرفة، فيدرج ليدرمان النسق الطبي القديم تحت الواقعية الساذجة Naive realism حيث يتخذ الإنسان موقفاً سليماً إزاء الموضوعات المدركة، وحيث تبني الموقف المعرفي: إن معرفتنا بالموضوعات الخارجية مطابقة لما تبدو عليه هذه الموضوعات أو وفقاً للتعبير العربي: ما في الأذهان صورة مطابقة لما في الأعيان، هذا الموقف المعرفي واضح من نفس تحديد وظيفة الطب: حماكة للطبيعة .  
 غير أن ليدرمان في كتابه «الفلسفة والطب» يربط بين الواقعية الساذجة وبين النظرة الكلية، حقيقة أن النسق الطبي القديم كان يجمع بينهما، ولكن ذلك لا يعني أن الواقعية الساذجة لازمة عن النظرة الكلية فما بينها مجرد اقتزاز دون لزوم أو عليه، وإنما تلزم الواقعية الساذجة عن الموقف السليبي للإنسان إزاء الطبيعة واقتدار دوره على مجرد «ادراكها» أو «محاذاتها» أو «محاكاتها» .  
 ومن ناحية أخرى هناك مذاهب تبني التزعة الكلية كفلسفة هيجل ومذهب الجحشلةت في علم النفس ولا يمكن أن يعبر أي منها عن الواقعية الساذجة، لأن الأخيرة تعبّر عن طور مبكر في طبيعة التفكير البشري ومن ثم فهي تلازم تفكير الإنسان العادي .

- بل إنه لا يمكن تعليم الحكم على الفكر في الحضارات القديمة بأنه معبر عن الواقعية الساذجة، أغلب الظن أنه تجاوزها فاكتشف بعض العقاقير غير الموجودة في الطبيعة - في مجال الطب والصيدلة إنما يعبر عن طور متتطور عن الدور السلي الذي مثله الواقعية الساذجة.
- (38) أبو زيد البلخي : مصالح الأبدان والأنفس ص 240 .
- (39) J.R. Worsley: Everyone guide to acupuncture pp. 19-20
- (40) مقدمة الدكتور عبد الغفار مكاوي لكتاب لاوسي: الطريق والفضيلة ص 7 ونص العبارة: لم تفصل النظرة الصينية أبداً منذ القدم بين الكون الصغير والكون الكبير.
- (41) كلود برنار وترجمة د. يوسف مراد وحد الله سلطان: مدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 230-232.
- (42) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص 164 .
- (43) كلود برنار ترجمة د. يوسف مراد: مدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 109 .
- (44) ديكارت: تأملات في الفلسفة الأولى - التأمل السادس.
- (45) د. محمد كامل حسين: وحدة المعرفة من ص 29 - 44 الطبعة الثانية 1974 مكتبة النهضة المصرية.
- (46) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص 60 - 68 ، وقد تناول موضوع «الغائية» تحت عنوان: الأسطورة والخرافة إلى جانب التجربة والسحر.
- (47) كلود برنار ترجمة د. يوسف مراد وحد الله سلطان: مدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 69 وما بعدها.
- (48) المراجع السابق ص 197 - 198 .
- (49) المراجع السابق ص 198 .
- (50) المراجع السابق ص 70 .
- (51) المراجع السابق ص 73 .
- (52) المراجع السابق ص 191 - 206 .
- (53) Rosenbluth a Wiener: Purposeful and non - Purposeful behavior (in philosophy of Science, Vol 17 p. 325, 1950)
- «وروذيليت» و«فيز» هما من مؤسسي علم «السيبرنطيكا» Cybernetics
- علم دراسة «نظم التوجيه والتحكم في الإنسان وفي الآلة» ، وهو العلم الذي قام على أساسه «علم الحاسوب» والعقول الالكترونية والذي يعد بحق ذروة ما وصلت إليه الترجمة الآلية التي تبشر بعصر الآلية الذاتية automation د. فؤاد زكريا:
- التفكير العلمي ص 33 - 205 .
- د. محمد كامل حسين: وحدة المعرفة من ص 57 - 91 .
- (54) المراجع السابق من ص 57 - 61 .
- (55) المراجع السابق من ص 3 - 10 .
- (56) المراجع السابق ص 69 .
- (57) بول موبي وترجمة الدكتور فؤاد زكريا: المطلق وفلسفة العلوم ص 389 .
- (58) كلود برنار وترجمة د. يوسف مراد: المدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 104 - 109 ، ص 147 .
- (59) كلود برنار وترجمة د. يوسف مراد وحد الله سلطان: المدخل إلى دراسة الطب التجاري ص 70 .
- (60) ليدرمان: الفلسفة والطب ص 3 نقاً عن عرض وتحليل الدكتور عزمي اسلام مجلة عالم الفكر عام 1975 ص 922 أكتوبر - ديسمبر 1975 .
- (61) الإنسان: ذلك المجهول Alexis Carrel: L'homme cet inconnu
- الترجمة العربية: عادل شفيق سلسلة كتب الجوائز العالمية، والكسيس كاريل طبيب حصل على جائزة نوبل في الأداب ص 45 وما بعدها.

- 
- (62) المرجع السابق ص 214.  
(63) المرجع السابق ص 99.  
(64) المرجع السابق ص 123.  
(65) المرجع السابق ص 126.  
(66) المرجع السابق.  
(67) نقلًا عن كتاب  
كلود برنار: المدخل إلى دراسة الطب التجريبي (الترجمة العربية) ص 62.  
(68) (69) المرجع السابق ص 66.  
(70) المرجع السابق ص 71.  
(71) د. عزمي اسلام: عرض لكتاب ليدرمان: الفلسفة والطب مجلة عالم الفكر عام 1975 ص 294.  
(72) د. رياض رمضان العلمي: الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم ص 168 سلسلة عالم المعرفة العدد 121 يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب الكويت.  
كلود برنار: المدخل . . . الترجمة العربية ص 73.  
الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول ص 184.  
المرجع السابق ص 185 وما بعدها.